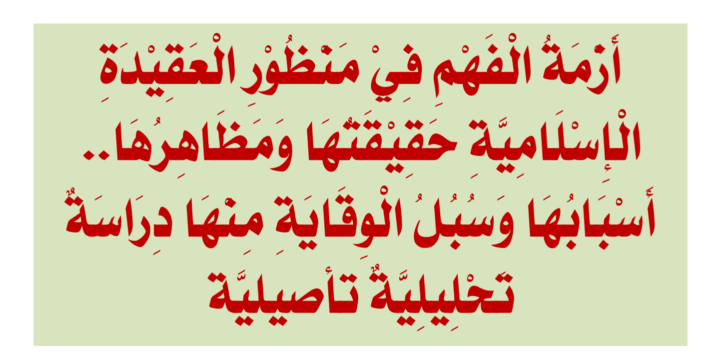
IUGJIS
Vol 27, No 1, 2019, pp 01 - 35

ISSN 2410-5201

مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2018-01-04)، تاريخ قبول النشر (2018-01-28)



أ.د. خَالِد حُسَيْن عَبْد الرَحِيمِ حَمْدَانُ[1]،*

[1] قِسْمُ الْعَقِيْدَةِ وَالْمَذَاْهِبِ الْمُعَاْصِرَةِ بِكُلِّيَّةِ أُصُوْلِ الْدِّيْنِ بِالْجَاْمِعَةِ الْإِسْلَاْمِيَّةِ بِغَــــزَّةَ

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: khamdan@iugaza.edu.ps

الملخص:

الفهم المأزوم يؤدي إلى نتيجةٍ مأزومةٍ قطعاً، ومن ثمَّ صدور أفعال وتصرفات مأزومةٍ والعكس صحيحُ تماماً، إذ لو امتلكت المفاهيم منهجاً عقليَّاً سليماً، فإنَّها بموجبه تستطيع أن تمحِّص الحق من الباطل، والصحيح من السقيم، من هنا يتضح لنا أنَّ ثمَّة تفاوت في المفاهيم، هذا التفاوت يفرض على من أراد أن يحقق الغاية من خلق الله تعالى له على هذه الأرض، والمتمثلة في القيام بمهمَّات الخلافة فيها، أن يحرصَ الحرصَ كلَّه على أن يكون من أصحاب المفاهيم السليمة حيث الانشراح والارتياح، والأمن والأمان والاطمئنان، وإلا فالضيق، والعسر، والفوضى والتوتر، والاضطراب من هنا فإن اختيار الباحث هذا الموضوع للكتابة فيه، إنما هو من أجل الإسهام في تصحيح الخلل في التصورات والمفاهيم، كل ذلك من خلال تجلية وتوضيح أزمة الفهم، سيراً على منهج سيدنا حذيفة ▯ الذي كان يسأل رسول الله عن الشر مخافة أن يدركه، وفي ذلك يقول أبو فراس الحمداني:

عَرَفْتُ الشّرَّ لا لِلشّرِّ   لَكِـــــــــنْ لِتَوَقّيــــــــــــهِ
وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشّـرَّ   منَ النـــاسِ يقعْ فيـــــــــــهِ

لا سيَّما وأنَّ الأمَّة الإسلاميَّة تمرُّ اليوم بلحظات فاصلة في تاريخها المعاصر، إذ تعصف بها موجهة عنيفة من الآراء المعكوسة، والأفكار المنكوسة، لذلك كان لابد من دراسة ظاهرة أزمة الفهم، دراسة علميَّة معمَّقة تزيل الغموض وتحرر الآراء من انعكاساتها والأفكار من انتكاساتها وتضع العلاج الملائم في إطار المقاصد العليا للعقيدة الإسلاميَّة، والتي تتسق معها الاتساق كلَّه المفاهيم الصحيحة، والآراء السديدة.

كلمات مفتاحية: الفهم السليم، الفهم المأزوم، الانفتاح، الانغلاق

Crisis of understanding in one of the Islamic Belief, its reality and manifestations reasons and means of prevention - a comprehensive analytical study

Abstract

The unsound understanding surly leads to unsound results, and troubled acts and actions, and vice versa. If concepts were based on a mentally - sound approach, they would be able to distinguish the right from wrong, and the authentic from fake. This lead us to admit that here is a variety of mental abilities. This necessitates that whoever intends to fulfill the aim of our existence on earth, which is the good inhabitance of earth, he/she should be keen to possess the required sound understanding. Such understanding leads to comfort, satisfaction, safety, security, and tranquility. Otherwise, the feelings of distress, hardship, chaos, tension, and instability would take place. Thus, the researcher selected this topic to help correct the deficiency in perceptions and concepts through highlighting the understanding crisis. This is consistent with the method of the Prophet's companion Huzaifa, may Allah be pleased with him, who used to ask the Prophet, may Allah's peace and blessings be upon him, about evil out of fear that it would reach him. In this regard, Abu Firas Al-Hamdani says: "I knew the evil, for nothing but to avoid it. Whoever does not recognize the evil among people, he would fall in it."

This is essentially important considering the hard and critical times that the Islamic nation experiences nowadays. It experiences a wave of violent opinions and distorted ideas. So, it is necessary to study the phenomenon of understanding crisis using a systematic and in-depth methodology. This is essential to remove ambiguity, liberate mentalities, and propose appropriate treatments in the context of the supreme purposes of the Islamic faith, which is coherent with the correct concepts and sound ideas.

Keywords: Proper understanding, misunderstanding, openness, closeness

مُقدِّمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله ربُّه / بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً، وبعد:

فهذا جهد متواضع يسهم به الباحث في رد قطاعات من الأمَّة إلى سلامة الفهم باعتباره من الضرورة للأمَّة بمكان، وباعتبار أن أزمّة الفهم التي عصفت بها ولا تزال تعصف، والتي أقضَّت مضاجعها ولا تزال تقضُّ، قد تسببت لها بالكثير من الأزمات، الأمر الذي أعاقها عن استئنافها لدورها، ولرسالتها التي بها حازت على خيريَّة الأمم، قال الله تعالى:" كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" (آل عمران: 110)، فكان لا بدَّ من العودة إلى سلامة الفهم للخروج من الأزمات التي ألمَّت بالأمَّة، فأنهكتها وفرقتها؛ فكان هذا البحث أشبه بعمليَّة استقرائيَّة لمعالجة العقيدة الإسلاميَّة لأزمة الفهم التي ألمَّت بالأمَّة، هذا وقد جاء هذا البحث في مقدِّمةٍ، وتمهيدٍ وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفيما يلي بيان ذلك.

أولاً: المقدمة:

وقد اشتملت على: موضوع البحث، أهميَّة البحث، أسباب اختيار البحث، أهداف البحث، منهج البحث، والدراسات السابقة ثم الخاتمة، وقد اشتملت على أهمِّ النتائج والتوصيات.

موضوع البحث:

يتناول هذا البحث موضوع أزمة الفهم، إذ تعصف بالأمَّة الإسلاميَّة عموماً، وبشبابها خصوصاً –في تاريخها المعاصر– موجة عنيفة من الاضطراب، وحالة أشبه ما تكون بحالة اللاوعي، وليس من سبب وراء ذلك سوى أزمة الفهم، الناتجة عن الفهم الظاهري للنصوص، مع غياب –متفاوت بين التام وشبه التَّام– لقواعد النظر والاستدلال والسياقات التاريخيَّة المرتبطة بها، فجاء هذا الجُهْدُ –المتواضع– علَّه يُسْهِمُ بإذن الله تعالى –إلى جانب غيره من الجُهُوْدِ– في أن تستعيد الأُمَّة مجدَها التليد الذي غادرها عقوداً من الزمان بسبب ما يعتريها من أزمة فهمٍ.

أهميَّة البحث:

تتمثل أهميَّة هذا البحث في كونه يسهم في ردِّ الأمَّة إلى ما كانت عليه من جادَّةٍ وصوابٍ، وإلى ما كانت عليه أيضاً من سيادة وريادةٍ، بعد تنقية عقليَّتها من أنماط الفهم السقيم المأزوم، والذي لم يعد معضلة فرد أو جماعة بل معضلة أمةٍ مُترامية الأطراف واستبدال ذلك كُلِّه بالفهم السليم.

أسباب اختيار البحث:

1–العلاقة الطرديَّة بين أزمة الفهم من جهة وكلِّ انحراف نشأ في الأفكار وفي المعتقدات قديماً وحديثاً، وفي المقابل العلاقة الطرديَّة بين سلامة الفهمِ وانفراجهِ وكلِّ صواب نشأ في الأفكار وفي المعتقدات ذاتها.

2–مساس أزمة الفهم بشكل أو بآخر بالكثير من جوانب الحياة الإنسانيَّة.

3–ابتلاء الأمَّة في حِقَب تاريخها المختلفة بأنماط من أصحاب الفهم المأزوم الذين أطلقوا كلمة الكفر بالرغم من زجر الشرع عنه إلى أقصى حدود الزجر.

4–المخالفة الصريحة لعقيدة الولاء والبراء، بسبب الولاء المطلق للشخصية الفكرية وللكيان الفكري المذهبي.

5–التحذير من التعالم باعتباره آفة قاتلة، ومرض فتَّاك، وكونه يصيب بعض من درج في سبيل العلم والتعلم.

6-عدم قبول الآخر، جزئيّاً أو كليّاً، وكذا الصدام مع الحضارات، وكون ذلك نابعاً من جهل لا من معرفة، ذلك أنَّ أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم إنَّما هي علاقة انفتاح وتعاون، وليست علاقة انغلاق وتصادم.

7-عود بعض من المسلمين أدراجهم نحو تصوراتٍ عقديَّةٍ منحرفةٍ عن مقاصد الدين وغاياته، وكذا انحراف مفاهيمهم العقليَّة عن مناهج التفكير السليم.

أهداف البحث:

تتمثل أهداف هذا البحث في:

1-معرفة المراد بأزمة الفهم من منظور عقدي.

2-بسط الحديث عن مظاهر أزمة الفهم، والأسباب الموضوعيَّة لها.

3-التعرف إلى هدي العقيدة الإسلاميَّة في الوقاية من أزمة الفهم.

4-التوصية بالأخذ بالأسباب المانعة من أزمة الفهمِ وكذلك المصحِّحةِ لها في ضوء العقيدة الإسلاميَّة.

منهج البحث:

سلك الباحث في بحثه المنهج الوصفي التحليلي[1]، حيث إنَّه أنسب المناهج لمثل هذه البحوث، وعلى الله قصد السبيل.

الدراسات السابقة:

كثيرة هي الدراسات والأبحاث، وأوراق العمل، التي صُنِّفت في موضوع البحث، بيد أنَّ النادر منها تناول الموضوع ذاته بالحيوية التي تناولها الباحث هنا، ذلك أن طرحها للموضوع ركز على أسباب منها العقدي ومنها غير ذلك، من أجل ردِّ المسلمين إلى وحدتهم في حين ركز الباحث هنا على الجانب الأصيل ألا وهو الجانب العقدي، هذا أولاً، وأمَّا ثانياً: لم تبرز تلك الدراسات، أو ربَّما أبرزت، لكنها لم تركِّز الحديث عن أزمة الفهم، بمثل ما ركَّز عليه هذا البحث، أمَّا عن أبرز تلك الدراسات فقد تمثلت فيما يلي:

1- خصائص النبيِّ ﷺ بين الغلو والجفاء -عرض ونقد على ضوء الكتاب والسنَّة/ الصادق بن محمَّد بن إبراهيم، مكتبة الرشد – الرياض، وأصل هذا الكتاب رسالة ماجستير، تقدَّم بها الباحث إلى قسم العقيدة بالجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنورة ونوقشت في عام 1415هـ، وكان موضوع الرسالة، في كون النَّاس في الخصائص النبويَّة ثلاثة أطراف، طرفان ووسط طرف غلا، وطرف جفا، وطرف توسط، ولمَّا كانت الرسالة تتعلَّق بما يعتقده المسلم في شخص النَّبيِّ ﷺ، آثر الباحث الكتابة فيها، وقد تناول الرد على الأطراف التي غلت غُلُوّها، هذا وإن كان البحث يفهم منه محاربته لأزمة الفهم، إلا أنَّه لم يركز عليها التركيز الذي ركَّزه هذا البحث.

2- منهج القرآن الكريم في إدارة الأزمات- دراسة موضوعيَّة/ رمضان يوسف عبد الهادي الصيفي، وهو أطروحة دكتوراه – غير منشورة- تقدَّم بها الباحث إلى جامعة الجنان، بطرابلس- لبنان، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، قسم أصول الدِّين- التفسير وعلوم القرآن، وجوهر موضوعها، هو الأحداث الجسام التي يزدحم بها هذا العصر الأمر الذي يقتضي وجود مختصِّين في إدارة الأزمات، ليضعوا الخطط والبرامج التي تأخذ بالاحتياطات اللازمة، كي يتمكنوا من اكتشاف الأزمات ومنع وقوعها، أو التقليل من أضرارها وآثارها، والرسالة في حقيقة أمرها، وبعد استعراضها، أستطيع القول أنَّها إلى علم الإدارة أقرب، وإن كانت من منظور قرآني إلا أنَّها لم تتطرق بالمطلق إلى أزمة الفهم، وهو الموضوع الرئيس لهذا البحث.

1 - المنهج الوصفي التحليلي هو: " وصف منظم للحقائق، ولميزان مجموعة معينة أو ميدان من ميادين المعرفة المهمَّة بطريقة موضوعيَّة وصحيحة". الخطيب وآخرون، دليل البحث والتقويم التربوي، ص 62.

3-ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق/ د. يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى-1421ه-2000م، دار الشروق-القاهرة وموضوع الكتاب الأبرز هو، المسألة الثقافيَّة التي لم يبرح الجدل حول طبيعتها مستعراً، ماهي؟ وما حقيقتها؟ وما هي خصائص الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة؟ وهل هي ثقافة منغلقة أو منفتحة؟ ... إلخ، والكتاب بعنوانه طرق فيه الشيخ -لكن دونما تركيز-جانباً من جوانب هذا البحث، (المطلب الرابع من المبحث الأوّل وهو بعنوان: الانغلاق الفكري والصدام مع الحضارات)، إلا أنَّه لم يتطرَّق إلى أزمة الفهم.

اكتفي بهذه الدراسات الثلاث التي ربَّما كانت الأقرب لموضوع هذا البحث، مع إقراري بوجود العشرات بل المئات من المؤلفات، والدراسات، وأوراق العمل، -كما أشرت آنفاً-التي تتقاطع مع موضوع هذا البحث، والله المستعان وعليه/ التكلان.

الخاتمة:

وقد اشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

ثانياً: الفصل التمهيدي:

وهو بعنوان: حقيقة أزمة الفهم، وعلاقتها بالتطرف والغلو العقدي، وقد اشتمل على جزئيتين، هما:

أولاً: حقيقة أزمة الفهم وجذورها التاريخية.

ثانياً: علاقة أزمة الفهم بالتطرف والغلو العقدي.

خطَّة البحث:

المبحث الأول: مظاهر أزمة الفهم، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التكفير المطلق للمخالف في الفكر والعقيدة.

المطلب الثاني: الولاء المطلق للشخصية الفكرية وللكيان الفكري المذهبي.

المطلب الثالث: الاستكبار والتعالم.

المطلب الرابع: الانغلاق الفكري والصدام مع الحضارات.

المطلب الخامس: العدوانية في مساحات الخلاف والاختلاف.

المبحث الثاني: الأسباب الموضوعية لأزمة الفهم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: انحراف التصورات العقديَّة عن مقاصد الدين وغاياته.

المطلب الثاني: انحراف المفاهيم العقليَّة عن مناهج التفكير السليم.

المطلب الثالث: التعصب للأفكار والمعتقدات في معيَّة الأهواء.

المبحث الثالث: سبل الوقاية من أزمة الفهم، وفيه أربعة مطالب.

المطلب الأول: بناء الفكر وتأصيله في ضوء العقيدة الإسلاميَّة.

المطلب الثاني: التوعية بقواعد وفقه الخلاف ومنطق الحوار الفكري وآدابه.

المطلب الثالث: تعزيز ثقافة المراجعة الفكرية علميَّاً وحركيَّاً.

المطلب الرابع: الانفتاح الفكري على الحضارات وفق ضوابط العقيدة الإسلاميَّة.

الفصل التَّمهيدي

حقيقة أزمة الفهم، وعلاقتها بالتطرف والغلو العقدي

قبل الشروع في هذا المشروع، لا بد من الإقرار أولاً، بأن أزمة الفهم، كانت ولا زالت تمثل ظاهرة مست وتمس بشكل أو بآخر، الكثير من جوانب الحياة الإنسانيَّة سواء كان ذلك على صعيد الفرد، أو الأسرة، أو المجتمع، أو حتى الحكومات –إلا من رحم ربِّي ﷺ–، وما ينبغي للإنسان على مستوى أصعدته سابقة الذكر، أن يكون مأزوم الفهم، وما ذاك، إلا لأنَّ ربَّه ﷺ خلقه، فسوّاه، فعدله، قال الله تعالى: "الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ" (الانفطار: 7) قال الإمام القرطبيُّ رحمه الله تعالى: "أي قدر خلقك من نطفة في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك، "فَعَدَلَكَ" أي جعلك معتدلاً سويَّ الخلق"[1] خلقه سبحانه في أحسن تقويم، قال الله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (التين:4) ثمَّ على الفطرة، أي على الإسلام، قَالَ رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ،..."[2]، ثمَّ بعد هذا كلِّه أرسل له الرسل المعصومين تترًا، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، أرسلهم بشرائعَ كاملةٍ محكمةٍ لا يعتريها النقص بحال من الأحوال قال الله تعالى: "ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا" (المؤمنون: من الآية: 44)، بعد هذا البيان الموجز عن خلق الله تعالى للإنسان هذا الخلق المحكم المتقن، وإرساله سبحانه الرسل وإنزاله الكتب، بفضل منه سبحانه ومِنَّة، فإنَّ كلَّ الذي كان ينبغي عليه فعله، أن يتبع ما أنزل الله تعالى عليه، ليجنِّب نفسه أزمة الفهم لا سيَّما وأنه اتباع ميسور يسَّره الله تعالى عليه، قال الله تعالى: "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ" (القمر: 17)، كررها الله تعالى في سورة القمر أربع مرَّاتٍ[3] هذا وإنَّ من أبرز فوائد التكرار في القرآن كما أفاد الإمام الزركشي هو تقرير المعنى وتوكيده فإنَّ الْكَلَامَ إِذَا تَكَرَّرَ تَقَرَّرَ[4]، ولبيان حقيقة أزمة الفهم لا بد من الوقوف على معنييها اللغوي ثمَّ الاصطلاحي، أولاً باعتبارها مركّبًا لفظيًّا ضُمّت كلمتاه بعضها إلى بعض، ثم باعتبارها علمٌ على مفهومٍ مخصوص.

أولاً: تعريف أزمة الفهم من حيث كونها مركّبًا لفظيًّا ضُمَّت كلمتاه بعضها إلى بعض:

أ–الأزمة في اللغة والاصطلاح:

الأزمة في اللغة: أزم: الهمزة والزاء والميم أصل واحد، وهو الضيق وتداني الشيء من الشيء بشدة والتفاف، يقال: أزمت وأنا آزم، والأزم شدة العض. والفرس يأزم على فأس اللجام،[5] والأزمة الشِّدَّةُ وَالْقَحْطُ، والْأَزْمُ: الدَّوَاءُ، يَعْنِي الْحِمْيَةَ، وَالْمَأْزِمُ: الْمَضِيقُ وكُلُّ طَرِيقٍ ضَيِّقٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ مَأْزِمٌ وَمَوْضِعُ الْحَرْبِ أَيْضًا مَأْزِمٌ [6]، والأَزْمَة: السَّنة المُجْدِبة، والأَوازِمُ: السِّنُون الشَّدَائِدُ كالبَوازِم، وأَزَمَ عَلَيْهِمُ العامُ والدهرُ يَأْزِمُ أَزْماً وأُزُوماً: اشْتَدَّ قَحْطُه، وَقِيلَ: اشتدَّ وقَلَّ خَيرُه[7]، وأَزم علينا الدهر

(1) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، 19/ 246.
(2) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا صلَّى الصبي فمات، هل يصلَّى عليه، حديث رقم: 2/ 94.
(3) كان ذلك في الآيات: (17،22، 32، 40).
(4) انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 10/ 3.
(5) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 1/ 97.
(6) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص:17.
(7) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 12/ 16.

يأْزِم أَزماً، أي: اشتد وقلَّ خَيره (1)، لذلك أسلم أبو طَالِبٍ ولده عليّاً إلى رسول الله ﷺ وذلك أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابَتْهُمْ أَزْمَةٌ شَدِيدَةٌ وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ..." (2)

الأزمة في الاصطلاح:

اختلفت –من جهة الشكل– عبارات المعرِّفين للأزمة، لكنَّها من حيث المضمون، متقاربة إلى حدٍّ كبير، ولعلَّ السبب في اختلافاتهم الشكليَّة تلك، يعود إلى اختلافاتهم في تخصصاتهم واهتماماتهم، حيث عرَّف بعضهم الأزمة بالمفهوم الاجتماعي[3] في حين عرَّفها آخرون بالمفهوم السياسي[4]، وعرَّفها فريق ثالث بالمفهوم الاقتصادي[5]، وهكذا، ولعل التعريف الأكثر انسجاماً مع طبيعة هذا البحث –حسب ما يرى الباحث– هو ما ذهب إليه أحمد اسماعيل حجّي، حيث قال:" إنَّها نقطة تحول في سلسلة من الأحداث المتتابعة، تسبب درجة عاليةً من التوتر، وتقود إلى نتائج غالباً ما تكون غير مرغوبة، وبخاصة في حالة عدم وجود استعداد أو قدرة على مواجهتها، وطبيعة الأزمة أنَّها موقف يطرأ فجأة فتصبح له الأولويَّة المطلقة في ضرورة التعامل معه، واتخاذ قرار لحسمه، لأنَّه يهدد إحدى القيم العليا في المؤسسة بشكل لا يمكن التسامح معه"(6).

ب–الفهم في اللغة والاصطلاح:

"الفاء والهاء والميم علم الشيء" (7)، يقال: فَهِمَ فَهْماً وفَهَماً وفَهامة: عَلِمَه، وهو مَعْرِفَةُ الشَّيْءَ بِالْقَلْب، وفَهِمْتُ الشَّيْءَ: عَقَلْتُه وعرَفْتُه، وتَفَهَّم الْكَلَامَ: فَهِمه شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ. وَرَجُلٌ فَهِمٌ: سَرِيعُ الفَهْم، وأَفْهَمه الأَمرَ، وفَهَّمه إِيَّاهُ: جَعَلَهُ يَفْهَمُه، واسْتَفْهَمه: سأَله أَنْ يُفَهِّمَه، وَقَدِ اسْتَفْهَمَني الشيءَ فأَفْهَمْته وفَهَّمْته تَفْهِيمًا (8)، وقيل: هُوَ سُرْعَةُ انْتِقَالِ النَّفْسِ مِنَ الأمُورِ الخَارِجِيَّة إِلَى غَيْرِهَا وقِيل: تَصَوُّرُ المَعْنَى من اللَّفْظِ، وقِيل: هَيْئَةٌ لِلنَّفْسِ يُتَحَقَّق بهَا مَا يَحْسُنُ (9)، والفهم: جمع أفهامٍ، وفهومٍ، وهو: حسن تصور الْمَعْنى وجودة استعداد الذِّهْن للاستنباط (10)

الفهم في الاصطلاح:

اختلفت أيضاً –شكلاً لا مضموناً– عبارات أهل الاختصاص، في تعريفهم للفهم اصطلاحاً، فهو عند الجرجاني: " تصور المعنى من لفظ المخاطب"(11)، وكذلك هو عند المناوي(12)، وَفِي الأَحْكَامِ للآمِدِيِّ: "عِبَارَةٌ عَنْ جَوْدَةِ الذِّهْنِ مِنْ جِهَةِ تَهْيِئَتِهِ لِاقْتِنَاصِ كُلِّ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَطَالِبِ"(13)، وعرَّفه ابن حجر، فقال: "هو فطنة يفهم بها صاحبها من الكلام ما يقترن به

---

(1) انظر: الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 5/1861.

(2) الشنقيطي، كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَارِي، 1/ 77.

(3) الجزيرة صحيفة يومية تصدرها مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، الخميس 9 ،شوال 1421 ، العدد: 10325

(4) http://rachelcenter.ps/news.php?action=view&id=5535 مركز راشيل كوري لحقوق الإنسان، بحث قانوني: الازمات،مفهومها،انواعها،طريقة ادارتها

(5) الموقع الإلكتروني الرسمي لجريدة النور، العدد 387، بتاريخ: 2009/5/6 www.anaour.com http://www.al-jazirah.com/2001/20010104/ar1.htm

(6) حجِّي، أحمد إسماعيل، الإدارة التعليميَّة والإدارة المدرسيَّة، ص: 34.

(7) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4/ 457.

(8) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 12/ 459.

(9) انظر: الزَّبيدي، محمّد بن محمّد، تاج العروس، 33/ 224.

(10) انظر: مصطفى إبراهيم، وآخرين، المعجم الوسيط، 2/ 704.

(11) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، ص: 169.

(12) المناوي، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 265.

(13) الآمدي، أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، 1 / 6.

من قول أو فعل"[1] وقد دلل على قوله بما رواه الإمام البخاريُّ من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ في الوفاة النبوية، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى المِنْبَرِ فَقَالَ: "إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ" فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ،..."[2]، وهو: "تصور المعنى من لفظ المتكلم أو من عبارة الكتاب"[3].

بقي أن نشير– حتى تكتمل الصورة– إلى أنَّ الفهم والفقه في المعنى صنوان، وهذا الذي أشار إليه القرآن الكريم في قول الله تعالى: "قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ..."، (هود من الآية:91) ، وقوله تعالى: " وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..."، (من الآية: 44)، أي ما نفهم، في الآية الأولى ولا تفهمون في الآية الثانية [4]، والعرب تقول: فَقِهْتُ كَلَامَك أي فهمته[5]، وقد جعل النبي ﷺ الفهم، مناط خيريَّة الإنسان عند الله تعالى، فعن حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ﷺ، قال: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ ﷺ ، خَطِيبًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، ..."[6]

تعريف أزمة الفهم من حيث كونها علماً على مفهوم مخصوص:

لم يجد الباحث – بالرغم من البحث والتحرِّي– تعريفاً اصطلاحيًّا لهذا المصطلح– أزمة الفهم– من حيث كونها علماً على مفهوم مخصوص، وانطلاقاً من الحاجة إليه، وكذلك انطلاقاً من القاعدة الأصوليَّة التي تقول: "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[7] استعان الباحث بالله تعالى، وجمع شتات ما ذهب إليه أهل الاختصاص، ومن ثمَّ قال: أزمة الفهم من حيث كونها علماً على مفهوم مخصوص هي: " تحول مفاجيء في التصور يؤدي إلى فساد في السلوك، وفساد السلوك يؤدِّي إلى أوضاعٍ مضطربةٍ، ويُحْدِث نتائجَ غير مرغوبٍ فيها، بسبب فقدان النظرة الكليَّة الشاملة لنصوص الشرع الحنيف، وإقصاء الموضوعيَّة،[8] في مسائل الخلاف والاختلاف، وإغفال التحري للحقائق وعدم الدقة والتدقيق في إدْرَاك القضايا المطروحة"[9]

حقيقة أزمة الفهم وجذورها التاريخية:

يعزو كثير من الباحثين أزمة الفهم، وما نتج عنها من غُلُّوٍ وتطرفٍ عَقَدِيٍّ، إلى قوم نوح ﷺ، حيث غلا قومه قبل مجيئه إليهم في محبَّة رِجَالٍ كانوا صَالِحِينَ، "فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ"[10]، فكانوا بذلك مشركين، وكان شركهم ذاك أول شرك يقع على الأرض، قال الله تعالى: "وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"

---

(1) العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري، 1/ 165.

(2) البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة، 5/ 57 حديث رقم: 3904.

(3) قلعة جي، قنيبي: معجم لغة الفقهاء، ص: 350.

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 9/ 91، 266/10.

(5) انظر: الآمدي، الإحكام، 1/ 6.

(6) البخاري: صحيح البخاري، كتاب: العلم، بَابٌ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ،25/1، حديث رقم:71.

(7) آل بورنو، حمد صدقي بن أحمد بن محمد، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، ص: 393.

(8) يقصد بالموضوعيَّة هنا تخلي الإنسان عن عواطفه، وانفعالاتِه، التي لا يقوم عليها دليلٌ نقلي أو عقلي تجاه مسألة تختلف فيه الأفهام، وتحتاج إلى أن يُتخذ فيها قرار. انظر: عبد الله، عبد الرحمن بن صالح، الموضوعية في العلوم التربوية، ص: 6.

(9) هذا التعريف من وضع الباحث بعدما جمع شتات ما ذهب إليه أهل الاختصاص.

(10) البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير، بَابُ (وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا، وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ)، 6/ 160، حديث رقم: 4920.

(نوح: 23)، ثم تدحرج شركهم إلى العرب قبل بعثة النبيِّ محمَّدﷺ، فكان شرك العرب ذاك أوّل شرك يقع في جزيرة العرب فقد ذكر المؤرخون: أن عمرو بن لحي[1] خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء[2]، رأى أهلها يعبدون الأصنام، وكان العرب آنذاك على فطرة التوحيد، فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه آلهة نعبدها، نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً، يقال له: هبل، فقدم به مكة فنصبَّه فوق الكعبة، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[3]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَكْثَمَ بْنِ الجَوْنِ الخُزاعي: "يَا أَكْثَمُ رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَة بْنِ خنْدِف يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ، وَلَا بِكَ مِنْهُ". فَقَالَ أَكْثَمُ: عَسَى أَنْ يَضُرَّنِي شَبَهُهُ يَا رسولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "لَا إِنَّكَ مؤمنٌ وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ غيَّر دِينَ إِسْمَاعِيلَ، فَنَصَبَ الْأَوْثَانَ، وبَحَر البحيرة، وسيبَ السائبة[4]، ووصل الوَصِيلة[5]، وحمى الحَامِي[6]"[7]، وهكذا انتشرت عبادة الأصنام في جزيرة العرب، وشاع في أهلها الشرك منسلخين بذلك عما كانوا عليه من عقيدة التوحيد، فعبدوا الأوثان من دون الله ﷻ وانتهوا إلى ما انتهت إليه الأمم الأخرى من ضلالٍ وانحرافٍ في المعتقدات، والمفاهيم والسلوك. بَيْدَ أن الباحث يرى أنَّ العزو الأصوبَ لأوّل أزمة فهم حصلت إنَّما هي تلك التي حدثت بإبليس أن يُطْرَدَ من رحمة ربِّه ﷻ، كيف لا ؟! وهو الذي أغوى قومَ نوحٍ فوقعوا في الشرك، والمنطق السليم يقول: إنَّ الذي يتسبب في أزمة الفهم لغيره لا بد وأن يكون هو مأزومُ الفهم قبله، وقصَّة أزمة فهم إبليس باختصار هي أن الله تعالى لمَّا خلق آدم ﷺ ليكون خليفة في الأرض، دخل إبليس منه حسد عظيم، وإبليس هو رئيس الجانِّ وكان أكثرهم عبادة، وكان اسمه "عزازيل"– جعل يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك، قال: "أما لئن سُلِّطْت عليك لأُهلكنك"[8]، فلمَّا أمره ربَّه بالسجود لآدم، امتنع، قال الله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا" (الكهف: 50)، وقال الله تعالى: "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" (الأعراف: 12) فكان ذلك سبباً في إبعاده عن رحمة ربهﷻ، فأنزل الله تعالى من

---

(1) هو عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، من قحطان أول من غيَّر دين إسماعيل عليه السلام ودعا العرب إلى عبادة الأوثان كنيته أبو ثمامة، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية 187/2.

(2) مآب: مدينة في أطراف الشام من نواحي البلقاء، والبلقاء: كورة من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمّان، فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وهي اليوم تضم مناطق الأغوار الوسطى والشونة والسلط والبقعة وعين الباشا في الأردن، انظر: البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. 219/1، 1216/3.

(3) انظر: ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، 1/ 77.

(4) البحيرة هي بنت السائبة، كانوا إذا تابعت الناقة بين عشر إناث لم يركب ظهرها، ولم يُجَزَ وبرها ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو ضيف، وتركوها مسيبه لسبيلها، وسمَّوها السائبة، فما ولدت بعد ذلك من أنثى شقَّوا أذنها، وخلَّوا سبيلها، وحرم منها ما حرم من أمها، وسموها البحيرة. انظر: الأصفهاني، المفردات، في غريب القرآن ص 109، ومادة بحر، ص: 246، ومادة سيب، ص: 431. وانظر كذلك: الجزري، ،،، ابن الأثير النهاية في غريب الحديث، 100/1.

(5) الوصيلة: الشاة إذا ولدت ستة أبطن، اثنين اثنين، وولت في السابعة ذكراً وأنثى، قالوا: وصلت أخاها فأحلّوا لبنها للرجال وحرموه على النساء. انظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص: 525، والجزري، النهاية في غريب الحديث 192/5.

(6) الحامي هو الفحل إذا ضرب عشرة أبطن، كان يقال: حمي ظهره، فلا يركب، انظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص: 133.

(7) ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 71، وبنحوه في، العسقلاني، فتح الباري، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة 547/6، حديث رقم: 521، وبنحوه كذلك في، مسلم ابن الحجاج: صحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف 622/2، حديث رقم 10/9.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، 1/ 59.

مرتبته التي كان قد نالها بسبب عبادته، وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن منهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور فخانه فهمه، في وقت كان أحوج ما يكون فيه إلى الفهم السليم[1]، حجّة إبليس في قوله: "أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي" هي من العذر الذي هو أقبح من الذنب، ذلك أنَّ امتناعه عن السجود، إنَّما هو امتناع عن الأمر الإلهي، الذي ما ينبغي أن يقابل إلا بالطَّاعة المطلَقة، وما كان من إبليس إنما سببه أزمة الفهم التي ألمَّت به، وهو أنّه امتنع عن الطاعة لأنه –حسب فهمه المأزوم– لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، ونسي أو تناسى أنَّ الأمر الإلهيَّ له خصوصيته، وأنَّه لا يخضع للقواعد التي يصطلح عليها بنو البشر، لذلك أثنى الله تعالى على المؤمنين الذين يسمعون فيطيعون، قال الله تعالى: "إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (النور:51) . بعد هذا التأصيل لأزمات الفهم الأولى التي وقعت على الأرض نعمد إلى ذكر أول أزمة فهم وقعت في تاريخ المسلمين وما كان من ذي الخويصرة التميمي، وحاصل الأمر يبدو جليَّاً من حديث الصحابيِّ الجليل أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ ﷺ، قال: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ اليَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ[2]، لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ، وَزَيْدِ الخَيْلِ، وَالرَّابِعُ: إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: "أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً" قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: "وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ" قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: "لاَ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي" فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ" قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: "إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ" وَأَظُنُّهُ قَالَ: "لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ"[3]، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنَّه يدلُّ على أنَّ هذا الرجل مأزوم الفهم، ولقد نبعت أزمة فهمه من كونه رضي برأي نفسه، في مقابل رأي الرسول ﷺ، ولو كان غير ذلك لتوقف تماماً عند قول رسول الله ﷺ أو فعله ليس إلا لأنَّه المبلِّغ للنَّاس دينهم عن ربهم ﷻ، ومن ثمَّ فلا رأي يقدَّم على رأي النَّبيِّ ﷺ، لذلك قال الإمام ابن الجوزي عند هذا الحديث: "أول الخوارج وأقبحهم حالة، ذو الخويصرة التميمي"[4]، أقول: وكذلك الذين خرجوا من ضئضئه أناس مأزوموا الفهم مثله، وليس أدلَّ على ذلك من قول النبي ﷺ السابق عنهم،"... قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"، هذا وإنَّ الذي يتتبع ما الذي جرَّته فتنة الخوارج على الإسلام والمسلمين منذ أن خرجوا وإلى يومنا هذا، يعلم أنَّ فتنتهم كانت الأشد والأعتى في تاريخ الإسلام والمسلمين بدءاً من فتنة التكفير، وانتهاءً بالقتل والتفجير واستحلال دماء الأبرياء وزعزعة النظام الاجتماعي، من خلال الإخلال بالأمن، الأمن الذي يعد من أهم الضروريات التي جاءت الشريعةُ الإسلاميَّةُ للمحافظة عليها، هذا ولا يمكن أبداً أن يتسبب إنسان في فتنة صغيرةٍ إلا إذا كان ذا فهم مأزوم فكيف إذا كانت الفتنة فتنة كبيرة وعمياء، كفتنة الخوارج.

ثانياً: علاقة أزمة الفهم بالتطرف والغلو العقدي:

---

(1) انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، 1/ 59.

(2) الْقرظ: ضرب من الشّجر يدبغ بِهِ يُقَال أَدِيم مقروظ وتصغيره قُرَيْظَة وَبِه سمي الْبَطن من الْيَهُود، العيني، عمدة القاري، (6/ 264)

(3) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَابُ بَعْثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَخَالِدِ بْنِ الوَلِيدِﷺ إِلَى اليَمَنِ قَبْلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، 5/163– 164 حديث رقم: 4351

(4) الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، تلبيس إبليس، ص: 81.

لا يختلف اثنان، أنَّ العلاقة بين أزمة الفهم من جهة، والتطرف والغلو العقدي من جهة أخرى هي علاقة طرديَّة[1]، إذ كلَّما ابتعد إنسان عن الفهم السليم، بدافع من دوافع البعد، كلَّما أصيب بالجُنُوح، ومجاوزة حدِّ الاعتدال، في أيّ مسألة من المسائل، وفي أيّ موقف من المواقف، ومن ذلك كثرة السؤال عن أمور غيبيَّة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيَّتها كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح، وغير ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل فقط، هذه المسائل وغيرها مما شابهها مما يجب الإيمان بها من غير بحث[2]، ذلك أنَّ الله تعالى قصر علم هذه المسائل عليه، فقال ﷻ عن الساعة وقوله الحق:"يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (الأعراف:187) وعن الروح قال ﷻ: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء:85)، والتنطُّع بلا شك يورد صاحبه موارد الهلاك، فعَن عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ"[3] قَالَهَا ثَلَاثًا [4]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"[5]، إذ في التنطُّع تضييع للزمان بما لا طائل من ورائه، يهدر فيه صاحبه الزمان هدراً، ويبذل فيها جهداً مضنياً، وكلُّ ذلك – مع شديد الأسف- بلا أدنى فائدة، فإن كان ولابدَّ فاعلاً فإنَّ الأولى به والأجدر أن يهدر زمانه، ويبذل جهده، في المسائل التي ينبني عليها عمل، وتصبُّ في صالح الأمَّة، ولعل معظم مصائب الفرق التي انحرفت في التاريخ الإسلامي، نتجت عن خيارات الغلو والتشدد، سواء كان ذلك بشكل عام أو في قضية بعينها، فانحراف الخوارج على سبيل المثال، لم يؤت أصحابه من فساد قلوبهم، وإنما أوتوا من فهمهم المأزوم وفقههم المعوجّ، وانحراف الْجَهْمِيَّةِ كذلك، فِي آخِرِ عَصْرِ التَّابِعِينَ، نتج عن أزمة فهمهم أيضاً، إذ كَانُوا أَوَّلَ مَنْ عَارَضَ الْوَحْيَ بِالرَّأْيِ، والقول نفسه ينسحب على من بعدهم ممن هم مثلهم إلى أن تقوم الساعة.

المبحث الأول: مظاهر أزمة الفهم

إذا كانت أزمة الفهم – لا سيَّما عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ- أصل كل انحراف نشأ في الأفكار وفي المواقف قديماً وحديثاً وفي التاريخ الإسلامي كذلك، فإنَّ استقرار الفهم وانفراجه -في المقابل-، هو أصل كلِّ صواب نشأ في الأفكار وفي المواقف ذاتها وفي التاريخ ذاته، لذلك عزا الإمام ابن القيِّم رحمة الله تعالى عليه ما كان عليه الصحابة ﷺ من صواب إلى حسن فهمهم، في حين عزا وقوع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية فيما وقعوا فيه من مذاهب فاسدة، إلى سوء الفهم عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ[6]، كما اعتبر رحمه الله صحةَ الفهمِ وحسنَ القصدِ من أعظم نعمِ اللهِ تعالى التي أنعم بها على عبده، بل وأكثر من هذا يعتبر أن العبد لم يعطَ عطاء بعد الإسلام أفضلَ ولا أجلَ منهما، إذ بهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم، الذين فسد قصدهم وطريق الضالين الذين فسدت أفهامهم ويصير من المنعم عليهم الذين

(1) هي العلاقة بين متغيرين، إذ كلما زاد أحدهما بمقدار معين، زاد الآخر بزيادة تتناسب مع زيادة الأول والعكس صحيح وسميت بهذا الاسم لأنها ترمز إلى المطاردة بين اثنين. انظر: https://ar.wikipedia.org/wiki

(2) انظر: العسقلاني، فتح الباري، 13/ 267.

(3) الْمُتَنَطِّعُونَ: "الْمُتَعَمِّقُونَ الْغَالُونَ الْمُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ" النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم ، 16/ 220.

(4)مسلم ابن الحجاج: صحيح مسلم/ ، كتاب الْعِلْمِ، بَابُ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ،4/ 2055، حديث رقم: 2670.

(5) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، بَابُ الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ 9/ 94، حديث رقم:7288.

(6) انظر: ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة، 2/ 509، 510، ـــ.

حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم[1]، وفي مطالب هذا المبحث نورد خمسة مظاهر لأزمة الفهم، ابتغاء التعرف أكثر على عقليَّة أصحاب الفهم المأزوم وطريقة تفكيرهم.

المطلب الأول: التكفير المطلق للمخالف في الفكر والعقيدة

التكفير المطلق كلمة يفهم منها أنَّ ثمَّة تكفيراً من نوع آخر، هو تكفير المعيَّن، والمراد بالتكفير المطلق، باعتباره موضوع حديثنا هنا، هو: إطلاق الكفر على فئةٍ معيَّنةٍ، لاتصافها بالكفر إن كان على صعيد القول أو الفعل أو الاعتقاد[2]، ولا يطلق بحال من الأحوال على فرد بعينه، فإن حصل، فهو تكفير المُعيَّن، هذا، ولا يجوز التكفير المطلق إلا عند وجود الدليل اليقيني الدّال على أنّ أقوال تلك الفئة، أو أفعالها، أو اعتقاداتها، توصف بالكفر كقول الله تعالى: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (المائدة، من الآية:73) فهذا كفر بالقول، وهو قول التثليث الذي يفتريه النصارى، وقوله تعالى:" وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ" (المؤمنون:117) ، وهذا تكفير بالفعل، وقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِه وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ: نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا. أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً" (النساء:150-151)، دلت هذه الآية على التكفير بشيء من الاعتقاد وهو الإيمان ببعض الرسل دون الإيمان بالبعض الآخر، أي التكفير بعدم الإقرار والتصديق ببعض الرسل، ولعلَّ تكفير بعض الفرق كالجهمية والقدرية الذين نفوا صفات الله تعالى، من أبرز الأمثلة على هذا النوع من أنواع التكفير، حيث كفَّرهم جمهور الأئمة والسلف، إلا أنَّ ذلك لا يستلزم كفر جميع أفراد تلك الفرق؛ لأن تكفير المعين لا بد فيه من ثبوت شروطه وانتفاء موانعه، وقد كفَّر الإمام أحمد رحمه الله تعالى، من قال بخلق القرآن وأنه جهمي، وهو تكفير مطلق، ولكنه لم يُكَفِّر كل فرد بعينه من أفراد تلك الفرقة، باعتبار الفرق بين التكفير المطلق وتكفير المعين،[3] ولقد حذَّر النبيُّ ﷺ من التسرع، وعدم التريث في تكفير المسلم، فعن أبي هريرة ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا"[4] وفي رواية عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ﵄: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا"[5]، بل وأكثر من هذا فقد روى أنس﵁، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: "مَن صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذلك المُسْلِمُ، الذي لَهُ ذمَّة الله وذمَّة رسوله فلا تخفروا الله في ذمَّته"[6]، ولقد قرر العلماء أن من صدرت عنه الكلمة تحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ثم احتملت الإيمان من وجه واحد حُملت على أحسن المحامل ألا وهو الإيمان[7].

بعد هذه الإطلالة على التكفير المطلق من المنظور الشرعي، يتضح لنا الزجر عنه إلى أقصى حدود الزجر، وأنَّه حكم مضبوط بضوابط الشرع، وعليه فإنَّه لا يجوز بحال من الأحوال التعامل معه بغير ضوابط الشرع، من جهل أو هوى، من هنا، فإنَّ كلَّ من لم يتعامل بموجب الضوابط المشروعة في التكفير إنَّما هو مأزوم الفهم، ولقد ابتليت الأمَّة في حِقَب تاريخها المختلفة بأنماط من أصحاب الفهم المأزوم على هذا الصعيد، فقد ظهرت فرقة الخوارج، وكان أول ظهور لها تحديداً في معركة صفين، التي

(1) انظر: ابن القيِّم: إعلام الموقعين عن رب العالمين، 1/ 69.
(2) انظر: الخلف، سعود بن عبد العزيز، أصول مسائل العقيدة، 2/ 57.
(3) انظر: الشاطبي، الاعْتِصَام، 3/ 115.
(4) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، 8/ 26 حديث رقم: 6103.
(5) المرجع السابق، حديث رقم: 6104.
(6) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، بَابُ فَضْلِ اسْتِقْبَالِ القِبْلَةِ (1/ 87).
(7) انظر: الزُّرْقاني، مناهل العرفان، 2/ 35.

جرت أحداثها بين علي ومعاوية ، ومن أبرز معتقداتهم التي تدلُّ على أنَّهم مأزوموا الفهم هي تكفيرهم مرتكب الكبيرة، في الوقت الذي لم يوافقهم فيه أحد ممن استقامت مفاهيمهم من أهل الإسلام، وظهرت كذلك المرجئة بمعتقداتها المأزومة التي خالفت فيها أهل السنَّة والجماعة، منها تقديمهم القول في الإيمان، وإرجاؤهم العمل، أي تأخيره، علماً بأنَّ الإيمان في كتاب الله الكريم وفي السنَّة المطهرة، وفي إجماع الأمَّة، إنَّما هو قول واعتقاد وعمل، هذان أنموذجان – والنماذج كثيرة– منذ فجر التاريخ الإسلامي، فإذا ما حططنا رحالنا إلى تاريخنا المعاصر لنأتي منه بمثال هو الأخير هنا، فإن مفاهيم مأزومة ظهرت تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ تلك المفاهيم من أبرزها مفاهيم تلك الجماعة التي تسمِّي نفسها "جماعة المسلمين"، أو "جماعة التكفير والهجرة"، كما يسمِّيها خصومها، حيث أحيت هذه الجماعة فكراً قريباً جدًّا من فكر الخوارج ألا وهو فكر التكفير، حيث تكفِّر هذه الجماعة، الحكام بإطلاق لعدم احتكامهم إلى شرع الله وتكفر من المحكومين من لم ينضووا تحت جناحهم، ولو كانوا آباءهم، أو أمهاتهم، أو إخوانهم أو عشيرتهم، لرضاهم بحكم الحكَّام الكفرة، حسب مفاهيمهم المأزومة، كما وتكفِّر العلماء أيضاً، لعدم تكفيرهم أولئك الحكام، كما أن الهجرة وهي العنصر الثاني عندهم ويقصدون بها اعتزال المجتمع الجاهلي عزلة مكانية وشعورية كذلك، وتتمثل في اعتزالهم معابد الجاهلية، ويقصدون بها المساجد الأخرى غير مساجدهم،[(1)] وليت الأمر وقف عند هذا الحد، إذاً لهان الخطب، بل الأمر أنكى وأشد فها نحن نرى اليوم اشتداد هبوب زوابع التكفير واستحلال دماء البشر ومن جملتهم المسلمين، هذا ما يفعله من يسمُّون أنفسهم بـــــــــــــــ : "الدولة الإسلاميَّة في العراق والشام"، أو "داعش" كما يسمِّيهم خصومهم كل ذلك تحت راية يُسمُّونها راية الجهاد لإقامة دين الله تعالى في الأرض، وهم في حقيقة أمرهم يشوِّهون الدين، وينفرون النَّاس منه، وأولاً عن آخر، فإن لفظة الخوارج لم تعد حكراً على تلك الثُلَّة التي خرجت على عَلِيٍّ ﷺ، إنَّما هي وصف لكل من انطبق عليه وصف النبيِّ ﷺ في الحديث الذي رواه عليٌّ ﷺ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ"[(2)]

المطلب الثاني : الولاءُ المطلقُ للشخصيَّة الفكريَّة وللكيانِ الفكريِّ المذهبيِّ

عقيدة الولاء والبراء إحدى أهم لوازم الإيمان بالله ﷻ ورسوله ﷺ، لذلك تعامل معها السواد الأعظم من المؤمنين تعاملاً ينسجم مع هذا الإيمان، المتمثل في قول الله تعالى: "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ" (المائدة:55)، في حين تعامل معها أقوام وللأسف الشديد، تعاملاً ينبئ عن أزمة فهم غير مؤولة وغير مبررة أيضاً، أدَّت بهم إلى الغُلُوِّ والانحراف، كان السبب من ورائها هنا الولاء المطلق للشخصية الفكرية وللكيان الفكري المذهبي وإنَّ الذي نقصده بهذا النوع من أنواع الولاء إنما هو: انجذاب وتعلُّق أفراد بهذه الشخصيَّة أو تلك، أو بهذا الكيان الفكري المذهبي أو ذاك، بغض النظر عمَّا عندهما من الحق، وفي هذا مخالفة صريحة وواضحة لعقيدة الولاء والبراء، فضلاً عن كونه منشأ الغلو الذي حرَّمه الله تبارك وتعالى في قوله عزَّ من قائل:"يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا" (النساء:171) وحرمه

---

(1) انظر: الطرفاوي، الغلو في التكفير، ص: 63-64.

(2) البخاري: صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدِّين، باب قتل الخوارج، 9/ 16، مسلم ابن الحجاج: صحيح مسلم، كِتَاب الزَّكَاةِ بَابُ التَّحْرِيضِ عَلَى قَتْلِ الْخَوَارِجِ، 2/ 746. قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله: "(أحداث الأسنان سفهاء الأحلام) معناه صغار الأسنان ضعاف العقول (يقولون من خير قول البرية) معناه في ظاهر الأمر كقولهم لا حكم إلا لله ونظائره من دعائهم إلى كتاب الله تعالى".

كذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، أنَّه سَمِعَ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ"[(1)] والإطراء هو الإفراط في المديح ومجاوزة الحد فيه وقيل: هو المديح بالباطل والكذب فيه، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، أي بدعواهم فيه الألوهية...[(2)]، فإذا كان الغُلُوُّ في الرسول ﷺ لا يجوز، فكيف به في أشخاص آخرين؟! إذاً لا ولاء مطلق إلا في الله ﷻ وإلا في رسوله ﷺ دونما غُلُوٌّ، من منظور أنَّه مُبَلِّغٌ عن ربِّه ﷻ قال الإمام البخاري رحمة الله تعالى عليه: "إِذَا ثَبَتَ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَلَيْسَ فِي الْأَسْوَدِ وَنَحْوِهِ حُجَّةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِد: " لَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ ...."[(3)]، من هنا فإنَّ من أراد أن يبقي على ولائه سليماً معافى يجب عليه أن يخلِّصه من كلِّ ما علق به من شوائب، سواء كانت تلك الشوائب تفسيرات خاطئة أو علاقات زائفة، ولن يستطيع ذلك إنسان إلا إذا عاد بولائه إلى ينابيعه الصافية الكتاب الكريم والسنَّة المطهرة، ومفاهيم السلف الصالح، من صحابة، وتابعين، وتابعين لهم بإحسان، أمَّا ما سوى ذلك فلن يعود على صاحبه إلا بأزمات المفاهيم، ومن ثمَّ أزمات الأقوال والأفعال، ومن ثمَّ الخيبة والخسران والعياذ بالله رب العالمين.

المطلب الثالث: الاستكبار والتعالم

حريٌّ بنا، وحتى نعي ما نقول، أن نُعرِّف بكلٍ من الاستكبار، والتعالم في اللغة والاصطلاح قبل الحديث عنهما باعتبارهما مظهرين من مظاهر أزمة الفهم.

الاسْتِكْبَارُ في اللغة:

"كبر: الكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغر" [(4)] والكبر، يأتي على وَجْهَيْن: أَحدهمَا: أَن يَتَحَرَّى الإنسانُ ويطْلُبُ أَن يكونَ كَبِيراً، وَذَلِكَ مَتى كَانَ على مَا يَجب وَفِي الْمَكَان الَّذِي يَجِبُ، وَفِي الْوَقْت الَّذِي يَجِبُ فَهُوَ مَحْمُود– وهذا ليس موضوعنا هنا، أَمَّا الثَّانِي، وهو موضوعنا فهو: أَن يَتَشَبَّع فيُظهِر من نَفْسِه مَا لَيْسَ لَهُ فَهَذَا هُوَ المَذْموم [(5)]، وهو الاستعظام والتَّعَظُّمُ، وقيل: التكبر، من الكِبْرِ[(6)]، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ: "إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ"[(7)] قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي: بطر الحق، أي: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً، وغمط الناس معناه احتقارهم[(8)].

الاستكبار في الاصطلاح: هو استعظام الإنسان نفسه بأكثر مما عنده في مقابل استهانته بالناس، واستصغارهم. [(9)]

التعالمُ في اللغة: "علم: العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره،من ذلك العلامة، وهي معروفة. يقال: علمت على الشيء علامة...، وكل شيء يكون معلما: خلاف المجهل"[1]، "وتعالم الناسُ الخبرَ: إذا عَلِمُوه"[(2)].

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تعالى:"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا" (مريم:16) 4/ 167، حديث رقم: 3445.

(2) انظر: المصدر السابق، الكتاب نفسه، والباب نفسه، شرح وتعليق الدكتور، البُغا، مصطفى ديب.

(3) البخاري، جزء القراءة خلف الإمام، ص: 14.

(4) ابن فارس، (5/ 153).

(5) انظر: الحسيني، تاج العروس، 9/14.

(6) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 5/ 126، والرازي، مختار الصحاح، ص: 265.

(7)مسلم ابن الحجاج: صحيح مسلم، كِتَابُ الإِيمَانَ بَابُ تَحْرِيمِ الْكِبْرِ وَبَيَانِهِ 1/ 93، حديث رقم: 147.

(8) انظر: المصدر السابق، شرح الشيخ: محمد فؤاد عبد الباقي.

(9) انظر: الكفوي، الكليات، ص: 28.

التعالمُ في الاصطلاح: يأتي بمعنى التشبُّع، وهو: المُظْهِرُ ما ليس عِنْدَهُ يَتَكَثَّرُ بِذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ، وَيَتَزَيَّنُ بِالْبَاطِلِ[3]، قَالَ الزَّمَخْشَرِيّ: "المتشبه بالشبعان ولَيْسَ بِهِ، واستعير للتحلي بفضيلة لم يرزقها، وليس من أهلها وَشبه بلابس ثوبي زور، أَي: ذِي زور، وَهُوَ الَّذِي يزوِّر على النَّاس بأن يتزيا بزي أهل الزهد، ويلبس لباس ذوي التقشف رياء"[4] يؤيِّد هذا الحديث الذي روته أسماء ∀ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي ضَرَّةً، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي"؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ"[5]، قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: "هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ دَعْوَى يَتَشَبَّعُ بِهَا الْمَرْءُ بِمَا لَمْ يُعْطَ مِنْ مَالٍ يَخْتَالُ فِي التَّجَمُّلِ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ أَوْ نَسَبٍ يَنْتَمِي إِلَيْهِ أَوْ عِلْمٍ يَتَحَلَّى بِهِ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ حَمَلَتِهِ أَوْ دِينٍ يُظْهِرُهُ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِهِ فَقَدْ أَعْلَمَ ﷺ أَنَّهُ غَيْرُ مُبَارَكٍ لَهُ فِي دَعْوَاهُ وَلَا زَاكٍ مَا اكْتَسَبَهُ بِهَا"[6]، وعليه فإنَّ التعالم آفة من جملة الآفات القاتلة، ومرض من جملة الأمراض الفتَّاكة، تصيب بعض من درج في سبيل العلم والتعلم، من جهة أنَّه يتكثَّرُ بما ليس عنده.

بعد ما يسَّر الله تعالى من تعريفات فإنَّ ما أَود قوله: الاسْتِكْبار والتعالم، حالتان مذمومتان، وصفتان مقبوحتان يرى المتصف بالأولى منهما نَفْسَهُ، أَكْبَر من غَيره، في حين يتفاخر الآخر بالعلم، وهو، وإن كان عنده شذراتٍ من علمٍ، فهو لم يتلقَّه عن العلماء وإنَّما طالعه في بطون بعض الكتب التي ربما صنَّفها أشباه علماء، وفي المحصِّلة ينطبق عليه قول من قال: من كان علمه من الكتاب فخطؤه أكثر من الصواب، والمقصود أنَّ أخطاءه كثيرة لضعف معرفته بالأدلَّة الشرعيَّة، والأحوال المرعيَّة، التي راعاها أهل العلم وعملوا بمقتضاها، لذلك لا يستكبر ولا يتعالم إلا من كان ذا فهمٍ مأزوم، وإلا لما استكبر وتعالم، كيف لا، وقد بلغه الحديث الذي رواه حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الخُزَاعِيَّ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ"[7]، والحديث الذي رواه كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ."[8]

هذان الحديثان يبرزان، وبما لا يدع مجالاً للشكِّ، أنَّ التكبُّر على النَّاس وبأي مدخل من مداخله (المال أو الجاه أو النسب...) إنَّما هو من أكبر الكبائر، والتعالم الذي هو التفاخر بالعلم كما، أسلفنا أكثر سوءاً من التكبُّر، قال الإمام ابن القيِّم رحمة الله تعالى عليه "... ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم فيجمعه تكاثراً وتفاخراً وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها".[9]

(1) ابن فارس، 4/ 109.
(2) اليمني، نشوان بن سعيد الحميرى، شمس العلوم، 7/ 4747.
(3) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج، 14/ 110، وانظر: عمدة القاري، 20/ 204.
(4) الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، 2/ 217.
(5) البخاري: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المُتَشَبِّعِ بِمَا لَمْ يَنَلْ، وَمَا يُنْهَى مِنَ افْتِخَارِ الضَّرَّةِ (7/ 35) حديث رقم: 5219.
(6) النووي، المنهاج: 2/ 126.
(7) البخاري: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب عتل بعد ذلك زنيم، 6/ 159، حديث رقم: 4918 مسلم ابن الحجاج: صحيح مسلم كتاب: الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ: النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ، 4/ 2190، حديث رقم: 2853.
(8) الترمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى: سنن الترمذي، 4/ 329، كتاب، أَبْوَابُ الْعِلْمِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ يَطْلُبُ بِعِلْمِهِ الدُّنْيَا حديث رقم: 2654، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي– بيروت، 1998 م، هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وحسَّنه الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير وزيادته، 2 / 1091، حديث رقم: 6383 –المكتب الإسلامي.
(9) ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص: 171.

من هنا فإن الغطرسة، والتعاظم، والتعالم، واستحقار عباد الله تعالى والتعالي عليهم لا يمكن بالمطلق أن يكون أصحابُها سليمي الفهم، وإنَّما هم أُناس مأزوموا الفهم، وأمَّا التواضع وخفض الجناح، ولين الجانب فهي لأناس ذوي فهم سليم، وفي هذا المقام يحضرني قول الشاعر:

ملأى السنابل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ[1].

المطلب الرابع: الانغلاق الفكري والصدام مع الحضارات

الانغلاق الفكريُّ في أبسط مفاهيمه هو: عدم قبول الآخر، جزئيَّاً أو كليَّاً، وكذا الصدام مع الحضارات، وعدم القبول هذا يكون نابعاً من جهل لا من معرفة، وناتجاً عن تقليد أعمى، لا عن تقليد مبصر إن جاز التعبير، ذلك أنَّ أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم في التصور الإسلامي، إنَّما هي علاقة انفتاح وتعاون وليست علاقة انغلاق وتصادم، وما ذاك إلا لإفساح المجال واسعاً أمام الدعوة إلى الله ﷻعلى بصيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالإضافة إلى أنّه لا دليل على الانغلاق على الآخر، والصدام معه، في حين أنَّ الأدلَّة كلَّها تدعم وتؤيد الانفتاح عليه كيف لا؟! وقد وضع القرآن الكريم منهجيَّة عمليَّة لذلك، فقال /: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (النحل:125) أي: ادع يا محمد إلى شريعة ربك، من أرسلك ربك إليهم بالحكمة، أي: بوحي الله الذي يوحيه إليك، والموعظة الحسنة، أي: بالعبر الجميلة التي جعلها الله / حجة عليهم في كتابه الكريم...[2] هذا، ولا يمكن أن تكون دعوة إلى الله تعالى والانغلاق سيِّدُ الموقف، وكذا الصدام، بل الانفتاح والتعاون، وأكثر من هذا فقد منح الله ﷻ إبليس حق التحاور وعَرْض الحُجج بالرغم من عناده وتكبره كما قدّم القرآن الكريم صفحات رائعة على هذا الصعيد من الأنبياء –صلوات الله وسلامه عليهم– لأقوامهم فلقد انفتح نوح عليه السلام على قومه فحاورهم بغية إقناعهم، وانفتح إبراهيم عليه السلام على النمرود، كما انفتح موسى عليه السلام على فرعون، ورسول الله ﷺ، سلك المسلك نفسه الذي سلكه القرآن الكريم، فانفتح على المشركين بالرغم مما كانوا عليه من صلف وعناد مستخدماً معهم أحسن الأساليب، تارة باللين والحكمة، وأخرى بتذكيرهم بأحوال من سبقهم من الأمم، وما حلَّ بهم من عذاب جرَّاء كفرهم، كل ذلك ليُقلعوا عمَّا هم عليه من شرك بالله ﷻ، وانفتح على أهل الكتاب فحاورهم، حتى المنافقين أعدى أعداء هذا الدين انفتح عليهم وحاورهم، ولمَّا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: أَلاَ نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الخَبِيثَ؟ وكان يقصد عبد الله ابن أبي بن سلول– رأس النفاق الأول– لمَّا قال قولته البائسة –على إثر الخلاف الذي نشب بين المهاجرين والأنصار– "أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ قالﷺ: "لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"[3]، من هنا، فإنَّ الأصل في المسلم أن يكون منفتحاً على الآخرين، قال الله /: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات:13) والتعارف المشار إليه في الآية الكريمة لا يمكن أن يتحقق بدون انفتاح، وليس أدلَّ ذلك من أنَّ الله 0 جعل الأُمَّة الإسلاميَّة خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس، ليس إلا لأنَّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر قال الله تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ" (آل عمران، من الآية:110) وكذلك جعلها أمَّة وسطاً، لتكونَ شهيدةً على النَّاس، قال الله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا..."(البقرة، من الآية: 143)، والخيريَّة والوسطيَّة هما الأداتان الأبرز للانفتاح، من هنا فإنَّ المنغلق على نفسه يكون قد أخرج نفسه ولو

(1) بحثت عن قائله طويلاً، وسألت عنه كثيراً، لكنني لم أهتد إليه.

(2) انظر: الطبري، أبو جعفر جامع البيان، 17/ 321.

(3) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما يُنْهى من دعوة الجاهليَّة 4/ 183.

جزئيًّاً من سِمَتَيِّ الخيريَّة والوسطيّة، والقول نفسه عن الصدام مع الحضارات، فالحضارة الإسلاميَّة لم تكن يوماً إلا حضارةً منفتحةً على الحضارات التي لا تختلف معها، والأدلة على ذلك كثيرة، من أبرزها أنَّ القرآن الكريم جاء مؤكداً لما لم تختلف عليه الشرائع السماويَّة السَّابقة فقال الله تعالى وقوله الحق: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ" (الشورى:13)، هذا ولم يجد المسلمون حرجاً في اقتباس الكثير من علوم الحضارات القديمة، فقد غدا المسلمون بعد تأسيس دولتهم واتساعها يلتمسون ما يحتاجون إليه من أمور المعاش عند غيرهم بداية من عصر عمر الفاروق ﷺ حيث طلب من عمرو بن العاص ﷺ أن يستفيد من خبرة المصريين في مجالي الزراعة والعمران[1] كما وأخذ الفاروق ﷺ من العجم فكرة الديوان[2] ولم يقتصر الأمر في الدواوين على اقتباس الفكرة فقط، وإنما أخذ المسلمون فيما بعد الأنظمة المتبعة فيه، ولسعة أفقهم فإنهم أخذوا من كل ولايةٍ النظامَ المتبع فيه، فأخذوا في العراق بنظام الفرس وفي الشام بنظام الروم، وفي مصر بالنظام القبطي.[3] هذا، وغيره كثير، إن دلَّ فإنما يدل أن الانفتاح وليس الانغلاق هو الأصل، وأن التعاون المشترك وليس الصدام هو الأصل كذلك، إذاً ليس من الحكمة وباسم الإسلام أن ينغلق المسلمون عن الآخر، وأن يصطدموا مع حضارته، بل الحكمة على العكس من هذا تماماً، وهي الانفتاح على الآخر والتعاون المشترك معه، وإن كانت لنا من كلمة هنا، فإنَّ الانفتاح المقصود هنا، إنَّما هو الانفتاح المحمود الملتزم بالإسلام، الذي يأخذ خير ما عند الآخر ويستفيد من تجاربه ويعطيه كذلك مما عنده من قيم ومفاهيم، وليس الانفتاح المذموم الذي هو التبعية والانهزام الذي يفتح الأبواب على مصاريعها، أمام الثقافات والحضارات ما طاب منها وما خبث.

المطلب الخامس: العدوانية في مساحات الخلاف والاختلاف

يرى بعض العلماء أن لفظتي الخلاف والاختلاف لفظتان متقاربتان لغة واصطلاحاً، بل وأكثر من هذا فهما لفظتان مترادفتان عندهم، تحلُّ إحداهما محل الأخرى، في حين يرى فريق آخر من العلماء: أنَّهما متباعدتان في المعنى، إذ يرى هذا الفريق من العلماء أنَّ مفهوم الخلاف ينصب على التعدد في الشيء، وكذلك التعدد في الرؤى وفي المواقف، في حين ينصب مفهوم الاختلاف على التنوع في الأشياء، وفي الرؤى وفي المواقف، من هنا كان الاختلاف اكثر عمقاً من الخلاف، وأبعد شأواً منه[4]، وبناءً على هذا الخلاف بين العلماء فإن الباحث لا يريد أن يبحر في هذه المسألة، ولا يريد أن يعطيها أكثر من حقِّها، لعدم مناسبة المقام، من هنا، فإنَّه وبصرف النظر عن الفرق بينهما، فهما أمران جُبِلَ الناس عليهما، فقد خلق الله ﷻ البشر مختلفين، قال الله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (هود:118)، خلقهم مختلفين في الدين، مختلفين في العقل، مختلفين في الإدراك، مختلفين في التصورات، في المفاهيم...، وبالتالي لا يمكن تفاديهما، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيّم"... ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم..."[5]، والخلاف والاختلاف اللذان لا يترتب عليهما محظور شرعي كالفُرْقَةِ مثلاً، والتقاطع، والتدابر والتحاسد والتباغض، لا سيَّما بين أهل المِلَّة الواحدة، والدين الواحد، فلا غبار عليهما، ويمكن اعتباره خلافاً محموداً، كذاك الذي كان يحصل وبكثرة بين الصحابة ﷺ، وبين فقهاء الأمَّة، وهي خلافات الفقهاء الأربعة رحمة الله عليهم لا زالت ماثلة أمام أعيننا وبين ظهرانينا، إلا أنَّه

(1) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص: 176.

(2) انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: 397.

(3) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 13 / 114.

(4) انظر: ما بين الخلاف والاختلاف تضيع المواقف، مدونة الدكتور/ خضر عباس https://drabbass.wordpress.com 30/10/2013

(5) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر ... الصواعق المرسلة، 2/ 519ـــ.

وبالرغم من كثرته إلا أنَّه لم يؤد يوماً إلى تنافر نفوسهم وتباعدها، ولذلك نجد الإمام ابن القيِّم ↑ يكمل قائلاً: " ... وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله، لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية..."[(1)]، أمَّا إذا تحوّل الخلاف والاختلاف إلى نزاع وشقٍّ للصف، وتشتيت للجهود، فهذا هو الخلاف المذموم، وهو علامة فارقة تدل وبشكل واضح على أزمة الفهم، وعلى التطرف عند من ينحى هذا المنحى من مناحي الخلاف فضلاً عن أنَّه أمر لا يجوز كما هو معلوم، لا سيَّما – مرَّةً أخرى– بين أهل المِلَّة الواحدة والدين الواحد إذ فيه مخالفة صريحة لأمر الله تعالى بالاعتصام بحبله المتين، في قوله عزَّ من قائل:" وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..." (آل عمران، من الآية: 103)، وقوله تعالى:(... وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ" (الحج، من الآية: 78)، قال الإمام ابن القيِّم ↑: "... ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه"[(2)]، من هنا، وفي ظل هذه النصوص وغيرها كثير، يتساءل الباحث، ما بال أقوام من المسلمين وبسبب مباشر ممَّا هم فيه من أزمة فهم، أوصلتهم إلى تطرف بغيض، قد طغى على خلافهم واختلافهم مع غيرهم –لا سيَّما المسلمين منهم– الذي استثناهم الله تعالى من الخلاف والاختلاف بالباطل، كما بيَّن ذلك صاحب أحكام القرآن[(3)]

فرموهم بكلِّ وسائل التكفير والتفسيق والتبديع، وأتبعوا ذلك البراء منهم دون الولاء علماً بأنَّ خلافهم مع غيرهم من المسلمين هو خلاف في الفروع الْمُحْتَمِلَةِ وُجُوهًا، وهو الخلاف الذي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى، رَحْمَةً وَكَرَامَةً لِلْعُلَمَاءِ، دوناً عن الخلافات الأخرى التي تودي بأصحابها إلى الكفر والعياذ بالله تعالى كالخلاف في إثبات الصَّانِعِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، ولا تلك التي هي من قبيل البدع كالخلاف في صفات الله تعالى، كما بيَّن ذلك صاحب مرقاة المفاتيح[(4)].

إنَّهم مدعوون الآن قبل غدٍ، أن يعودوا أدراجهم، ويلتمسوا الأعذار لغيرهم، وأن ينأوا بأنفسهم عن أن يظلوا سبباً في فرقة الأمَّة وتشرذمها، في الوقت الذي لا يرقب أعداؤها فيها إلاً ولا ذمَّة، وأن يستبدلوا ما هم عليه من خلاف واختلاف مذمومين إلى خلاف واختلاف محمودين، وذلك من خلال نشر روح المودة والتسامح في أوساطهم تجاه غيرهم وأن يقبلوا بالخلاف والاختلاف وفق الضوابط الشرعيَّة، كل ذلك قبل أن يعرضوا على ربِّهم، فيطالهم جزءاً أو كلَّاً قول الله تعالى: "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا" (الكهف:103-104)، أو قول الله /:"وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا" (الفرقان:23)

المبحث الثاني: الأسباب الموضوعية لأزمة الفهم

تنحصر الأسباب الموضوعية لأزمة الفهم – حسب ما يرى الباحث–في سببين اثنين وما سواهما هو نتيجة لهما، أمَّا الأول منهما فهو: انحراف التصورات العقديَّة عن مقاصد الدين وغاياته، وأمَّا الآخر فهو: انحراف المفاهيم العقليَّة، وينتج عنهما التعصب للأفكار والمعتقدات.

إنَّ هكذا انحرافات وما ينتج عنهما هي سمات لأناس مأزومي الفهم بلا شك، وهذا ما سنبيِّنُه في مطالب هذا المبحث بإذن الله تعالى، وقبل البيان لا بدَّ من التعريج باختصار على تعريف الانحراف في اللغة والاصطلاح.

---

(1) المصدر السابق، 2/ 519ـ.

(2) المصدر السابق، 2/ 519ـ.

(3) انظر: الجصاص، أحكام القرآن، 4/ 380.

(4) انظر: الهروي، مرقاة المفاتيح، 9/ 3853.

فالانحراف في اللغة، هو: الميل عن الشيء والعدول عنه، ومادته الحاء الراء والفاء، يقال انحرف عنه ينحرف انحرافاً وحرفته أنا عنه، أي عدلت به عنه... وذلك كتحريف الكلام وهو عدله عن جهته(1)، قال الله تعالى: "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ..." (النساء من الآية: 46).

وأمَّا في الاصطلاح، فهو: " كل فعل، أو نشاط، أو تصرف، فيه خروج عن قيم ونظم وتقاليد المجتمع الأصيلة، أو عن القيم الدينيَّة والخلقيَّة، أو عن القواعد الدينيَّة، أو معايير السلوك السويّ"(2)، وهناك من يرى أن الانحراف، ما هو إلا: " الخروج من جادَّة الصواب، والبُعد عن الوسط المعتدل، وترك الاتِّزان"(3)

المطلب الأول: انحراف التصورات العقديَّة عن مقاصد الدين وغاياته

أرسل الله تعالى محمَّداً ﷺ لينشئ أمَّة مميزة، مميَّزة في كل شيء، وإنَّ من أبرز مميزاتها إخراج البشريَّة من ظلمات جهلها إلى نور ربِّها ﷻ؛ وظلمات الجهل مفهوم واسع يشمل أموراً كثيرة، يصعب حصرها هنا، لذلك فإنَّ مرادنا سيقتصر هنا على التصورات العقديَّة المنحرفة، التي جاء الإسلام ليحولها كلَّها إلى تصورات سليمة، قال الله تعالى: "الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" (إبراهيم:1)، وإنَّه لمن أعجب العجب، ومما يؤسف له أن يعود كثير من المسلمين أدراجهم نحو تصوراتٍ عقديَّةٍ منحرفةٍ عن مقاصد الدين وغاياته أولئك الذين غالوا فحادوا عن الصراط، وأخطأوا في فهم الصواب، فتراهم –على صعيد الإيمان كله، الذي هو اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان، –يعتقدون معتقدات ويقولون أقوالاً ويعملون أعمالاً، ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، وما كان عليها سلف الأمَّة الصالح، والأدهى والأمر أنَّهم يظنون أنَّهم يحسنون صنعاً، الأمرُ الذي يُعَدُّ من أبرز أسباب أزمة الفهم.

إن للتّصورات العقديّة الصّحيحة دورًا محوريًّا في حياة صاحبها، من جهة سلامة الفهم أولاً وآخراً، إذ بسلامة الفهم واستقامته تستقيم الحياة الدنيا، كمقدّمة لسلامة الحياة الآخرة، والعكس صحيح تماماً، لذلك كان التركيز على سلامة العقيدة من قبل الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، يمثل المهمَّة الكبرى لهم، وذلك لما لها من أهميَّةٍ كبرى، تتمثل في صلاح حياة الناس، لذا كان لا بد منها لحفظ الدين ودفع كل انحراف أو اعوجاج، قد يعترضان أو يعترضُ أَحَدُهما الفهم السليم.

إنَّ ما نعنيه بانحراف التصورات العقديَّة، هو كلُّ ما من شأنه الخروج بالعقيدة ومقاصد الدين وغاياته عن جادَّةِ الصواب حيث يسلك من هذه صفته سبيلاً غير سبيل الرشاد، المتمثل فقط في سبيل الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، ومن سلك نهجهم، وإنَّ من أبرز الأمثلة على انحراف التصورات العقديَّة عن مقاصد الدين وغاياته ما يلي:

1–تأويل أصول العقائد بدون برهان قاطع الأمر، الذي يؤدِّي إلى الكفر، والعياذ بالله تعالى، كذاك الذي ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسيَّة في الآخرة، ويؤولها إِلَى آلام عقلية وروحانية(4)، وكذاك الذي يقول: إنَّ الله تعالى لا يعلم إلا نفسه، أو أنَّه لا يعلم الجزئيات، سبحانه وتعالى عمَّا يقول الظالمون علُوّاً كبيراً.(5)

(1) انظر: ابن فارس، 2/ 42، والأزدي، أبو بكر، جمهرة اللغة، 517/1.

(2) سبل وقاية الأولاد من الانحراف من منظور إسلامي، ص: 3، تم تحميل البحث من موقع الأستاذ الدكتور سليمان بن قاسم العيد http://fac.ksu.edu.sa/saleid1، وهو نقله عن بحث دور المربي ورجل الإعلام، والمرشد الديني، في الوقاية من الجريمة والانحراف، مجموعة بحوث دور المواطن في الوقاية من الجريمة والانحراف، ص:21 (المركز العربي للبحوث والدراسات الأمنية).

(3) الإسلام والشباب، ص: 163.

(4) انظر: الطوسي، أبو حامد الغزالي، قواعد العقائد، ص: 138.

(5) انظر: البطليوسي، الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة، ص: 107.

2-الحكم بالكفر على الشخص المعيَّن دون تَبَيُّن، ودون توفرْ جميعُ شروط الحكم عليه، وهذا أمر ابتليت به الأمَّة قديماً وحديثاً، لأن تكفير المعين لا بد فيه من ثبوت شروطه وانتفاء موانعه، ذلك أنَّ الإيمان من الأحكام المتلقاة عن الله تعالى ورسولهﷺ وليس مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم.(1)

3-ما نراه في قضايا الولاء والبراء، والتي أساء مأزومو الفهم استخدامها إفراطاً وتفريطاً بالرغم من أنها قضايا عقديَّة صرفة ومن ثمَّ فإنَّ الإخلال بها هو إخلال في الإيمان، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تفريق بعض العلماء بين الموالاة والتولي؛(2) باعتبار أنَّ حكم الموالاة للأعداء، كالتقرب لهم والتذلل، هو كحكم الكبيرة، فهذا هو الإفراط وأمَّا التولِّي؛ والذي يأتي على شكل إعانة الكافرين المعادين، سواء كان ذلك بالمال أو بالبدن أو بالمشورة والرأي، أو مشاركتهم أفراحهم وأتراحهم، فهذا قد يكون كفراً يخرج من الملَّة، وهذا هو التفريط، وفي معرض الرد على المفاهيم المأزومة، فإنَّ شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى، بيَّن عقيدة أهل السنَّة والجماعة في عقيدة الولاء والبراء في النقاط التالية:

- من كان مؤمناً وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان، قال تعالى: "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ" (المائدة: 55، 56)
- من كان فيه إيمان وفجور أعطي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي كما يقول الخوارج والمعتزلة.
- الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة (3).

المطلب الثاني: انحراف المفاهيم العقليَّة عن مناهج التفكير السليم.

خلق الله تعالى الإنسان وجعله من جملة المخلوقات العاقلة المُفَكِّرة، والتفكير كما هو معلوم وظيفة عقليَّة بارزة، ومصطلح التفكير إذا أطلق، فإنَّه يعني أول ما يعني التفكير السليم، وهو الذي يجعل الإنسان إنساناً، لذلك نجد العديد من الآيات القرآنية قد ملئت بالدعوة إلى التفكر إلى جانب التأمل والتدبر، وهي كذلك وظائف عقليّة، فقال الله تعالى: "... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (النحل، من الآية:44) وقال الله جلَّ وعلا: "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (آل عمران:191)، وفي المقابل نعى القرآن الكريم على الذين يتركون هذه الخصيصة خصيصة التفكير السليم، ومن الطبيعي أن يكون الذين لا يفكرون تفكيراً سليماً، أسوأ حالاً من الذين يتركونها، لذلك نفى القرآن الكريم صفة الآدميِّين عن الكافرين في قوله عزَّ من قائل: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" (الأنفال:55)، ليس إلا لأن تفكيرهم كان سقيماً ومن ثمَّ كان السبب في عدم إيمانهم، ولعلَّ هذا ما عناه مصطفى صادق الرافعي عندما قال:" ... فإن لم تزد شيئا على الدنيا كنت أنت زائدًا على الدنيا؛ وإن لم تدعها أحسن مما وجدتها فقد وجدتها وما وجدتك..."(4) بمعنى أنَّك إن لم تزد على الدنيا شيئاً بتفكيرك السليم، الذي يتبعه عملك السليم فأنت في حقيقة أمرك لا لزوم لوجودك كإنسان في هذه الدنيا، وإذا ما نظرنا في القرآن الكريم، لوجدناه حافلاً بالحثِّ على النظر العقلي، والتأمل، والفحص، وتقليب الأمور لفهمها وإدراكها من ذلك قول الله تعالى: "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي

(1) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 35/ 165.
(2) ابن عبد الوهاب، سليمان، أوثق عرى الإيمان، ص: 44، والأعلام، علماء نجد، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، 422/8.
(3) انظر: ابن تيمية مجموع الفتاوى، 28/ 228، وانظر: ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، 5/ 108.
(4) الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، 2/ 68.

السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" (البقرة:144)، وقوله تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" (القصص:72) وقوله تعالى: "قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ" (الأنعام: 50)، وقوله تعالى: "قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ" (آل عمران:13) وهذه كلُّها أنماط من أنماط التفكير السليم.

إنَّ أمَّتنا اليوم بكافَّة قطاعاتها لا سيَّما وهي تواجه أشرسَ الهجمات، وأشدَّها ضراوةً، مدعوَّةٌ اليوم إلى التفكير السليم، حتى تستطيع درء أعدائها عنها، أعداءها الذين لا يرقبون فيها إلَّاً ولا ذمَّة، فإن لم تفعل، فعل فيها عدوُّها الأفاعيل، فضلاً عن أنَّها تعرض نفسها إلى سنَّة الاستبدال الماثلة في قوله تعالى: "وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ" (محمد، من الآية: 38).

إنَّه وبسبب التفكير غير السليم، تفرَّقت الأمَّة تفرقاً شديداً، فعدا عليها أعداؤها فاحتلُّوا أرضها، ونهبوا خيرات بلادها، وقتلوا شبابها، وفعلوا بها ما تقشعر الأبدان من ذكره، لذلك أصاب الإحباط كثيراً من الناس، وسرى إلى نفوسهم اليأس، وليس من خروج من هذه الحالة، بالإضافة إلى حالات الترهل، والتفكك، إلا بالعودة إلى التفكير السليم، القائم على المعلومات والخبرات، على أن يُشفع ذلك كُلَّه بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته، عندها بإذن الله تعالى ستحل كلُّ المشكلات، وتعود الأمَّة من جديد رائدة الأمم، لا سيَّما وأن معطيات الرِّيادة التي تحصلت عليها الأمة أول مرَّة موجودة إلى الآن، شريطة الولوج إليها من خلال التفكير السليم، لا التفكير السقيم.

المطلب الثالث: التعصب للأفكار والمعتقدات في معيَّة الأهواء

التعصب للأفكار والمعتقدات مظهرٌ رئيسٌ من مظاهر أزمة الفهم، لا سيَّما إذا خالطته الأهواء، فأنَّى للمتعصِّب أن يصل للمعارف التي عند غيره من النَّاس، وقد أغلق عقله وأعمى بصره، وأصمَّ سمعه عن الاستماع إليهم أصلاً، وعليه، يكون قد حرم نفسه من ثناء الله ﷻعلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وذلك قوله تعالى: "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ" (الزمر:18)، وقبل المضي قُدُماً في الحديث عن التعصب فإنَّه لا بدَّ من التعريف به، كي لا تلتبس الأمور، ونعي ما نقول.

التعصُّب في اللغة: "عصب: العين والصاد والباء أصل صحيح واحد يدل على ربط شيء بشيء، مستطيلا أو مستديرا. ثم يفرع ذلك فروعا، وكله راجع إلى قياس واحد"[1]، والعَصَبِيَّة: دعوة الرجلِ إِلى نُصْرةِ عَصَبَتِه، والتَّأَلُّبِ مَعَهُمْ، عَلَى مَنْ يُناوِيهم ظَالِمِينَ كانوا أَو مَظْلُومِينَ، والعَصَبَةُ: الأَقاربُ مِنْ جِهَةِ الأَب(2).

التعصُّب في الاصطلاح: عدمُ قبول الحق عند ظهور دليله، بناء على ميل إلى جانب(3).

(1) ابن فارس، 4/ 336

(2) انظر: : ابن منظور، لسان العرب، 1/ 606، مادَّة: عصب.

(3) انظر: البركتي، محمد عميم الإحسان المجددي، التعريفات الفقهية، ص: 58، والتهانوي، محمد بن علي ابن القاضي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1/ 485.

مما تقدمَّ من تعريفات يتضح لنا أنّ التعصُّب مذمومٌ؛ ومذمومٌ أكثر، إذا ما دار في دائرة الهوى، وعن الهوى يقول الله تعالى: "أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا" (الفرقان:43)، لذلك حذَّر الله تعالى نبيه ﷺ وأمته من آفة الهوى، فقال تعالى وقوله الحق: "وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ،..."، (المائدة، من الآية: 49)، هذا وإنَّ للتعصب أنماطاً وأشكالاً كثيرةً، وإنَّ الذي يهمُّنا منها هنا هو التعصُّب الفكري المصحوب بالهوى، والذي بموجبه يلغي المتعصِّبُ الرأي الآخر، ويرفض قبوله، وهذا سلوك مخالف لتعاليم ديننا الحنيف كيف لا وقد جعل الله تعالى أمَّة محمَّدٍ ﷺ أمَّة وسطاً أي: جعلها الأُمَّةَ التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم[1]، قال الله تعالى: و"كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا..(البقرة، من الآية:143)، وإذا كان النَّبي ﷺ قد وسَّع صدره للشاب الذي جاء يستأذنه في الزنا، ففيم إذن لا تتسعُ صدورَ بعض المسلمين على بعضهم، وعلى غيرهم من غير المسلمين أيضاً؟ فيحرمون أنفسهم من ثواب تذكير بعضهم بعضاً، ودعوة غيرهم إلى دينهم، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ، مَهْ، فَقَالَ: "ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا"، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟" قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ" قَالَ: " أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ " قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ"، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟" قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ"، قَالَ: " أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ "قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ" قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟" قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ "، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: "اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ" قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.[2]

لهذا كلِّه وجب على المسلم، أن يغالب هذه الآفة، إن وجدت عنده، لينجو من شَرَكِهَا لا سيَّما إذا صاحبتها آفة أخرى لا تقل عنها خطورةً هي، آفة الهوى، والمراد بها: ميل النفس إلى ما تحب ، وهي التي تورث في قلب صاحبها الكبر عن قبول الحق، حتى ولو كان مقروناً بالآيات البيِّنات، والأحاديث الظاهرات الواضحات، فلا يلبث إلا أن يؤولها على هواه، ثم يأتي من بعد على أقوال أهل العلم الثقات، فلا يلبث أن يردها، إنَّه التعصب للأفكار والمعتقدات في معيَّة الأهواء، ولذلك جعل الله تعالى الجنَّة مأوى المؤمنين الذين لا يستجيبون لأهوائهم، فقال تعالى وقوله الحق: "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" (النازعات: 40-41)، قال الإمام ابن القيِّم –، "ولما امتحن المكلف، بالهوى من بين سائر البهائم، وكان كل وقت تحدث عليه حوادث جعل فيه حاكمان حاكم العقل وحاكم الدين وأُمر أن يرفع حوادث الهوى دائما إلى هذين الحاكمين وأن ينقاد لحكمهما وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب، ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه"[3]

المبحث الثالث: سبل الوقاية من أزمة الفهم

لطالما طرق مسامعنا وردَّدنا في صِغَرِنا، ولا زلنا نردد في كِبَرِنا، للحكمة التي أقرتها البشرية منذ زمن بعيد، والقائلة: "دِرْهَمُ وِقَايَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِنْطَارِ عِلَاجٍ"، ردَّدناها قبل أن ندرك معانيها الحقيقيَّة، وردَّدناها بعد أن أدركناها، لكننا لازلنا نعاني أنماطاً مختلفة من المعاناة، بسبب ضعف أو عدم التعاطي مع هذه الحكمة الشهيرة، بالرغم من أنَّ لها تأييداً من السنَّة

---

(1) انظر: قطب، سيد في ظلال القرآن، 1/ 130

(2) ابن حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد، 36/ 545، حديث رقم: 22211، قال المحققون: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

(3) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص: 470.

المطهَّرة بأشكال شتَّى، منها، ماوراه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " لَا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ "[1]، ومنها ما هو على شكل تحذير من مخالطة أصحاب الأمراض المعدية، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ... وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ"[2]، ومنها ما يعمل على حصر المرض في موضعه والمنع من انتشاره بشكل جماعي فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ هَذَا الْوَبَاءَ رِجْزٌ أَهْلَكَ اللهُ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَكُمْ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْهُ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ يَجِيءُ أَحْيَانًا وَيَذْهَبُ أَحْيَانًا، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ، فَلَا تَأْتُوهَا"[3]، وما من شكٍّ في أنَّ الحلَّ الأمثل لأيِّ معاناة، ومنها أيُّ أزمة فهم قد تطرأ، هو الوقاية منها، وفي مطالب هذا المبحث مجموعة سبل ما من شكٍّ في أنَّ الأخذ بها ستكون له انعكاساته الإيجابيَّة بإذن الله ربِّ العالمين.

المطلب الأول: بناء الفكر وتأصيله في ضوء العقيدة الإسلاميَّة.

خلق الله ﷻ الإنسان على الفطرة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ ﷺ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ"[4] ثُمَّ يَقُولُ: اقْرَؤوا: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ..." (الروم، من الآية:30) يعني على العهد الذي أخذه الله عليهم بقوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" (الأعراف:172)، وكل مولود في العالم يولد على ذلك الإقرار، وهو الحنيفية التي وقَّعت الخليقة عليها، أي خُلِق الناس عليها وفطرة الله، دين الله، أي: الزم فطرة الله، التي فطر الناس عليها[5]، فدين الله ﷻ إذن، هو القاعدة التي ينطلق منها الإنسان وعليها يضبط كلَّ حركاته، وسكناته، ومن جملتها فِكْرَهُ الذي يحمله، ذلك أنَّ القرآن الكريم، والسنَّة النبويَّة، المصدران الأساسيَّان في هذا الِّدين، وفي هذه العقيدة، كما في كلِّ عقيدةٍ صحيحةٍ، يتفقان مع الفطرة السليمَّة ومع العقل الصحيح الصريح الواعي فيهما الغنى والكفاية عمَّا سواهما، وفيهما الهداية وفيهما النور، فالله تعالى يقول عن القرآن الكريم: "...مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ..." (الأنعام، من الآية: 38) ويقول سبحانه: "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" (فُصِّلَت:42)، وعن السنَّة المطهرة، يقول النبي ﷺ "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ..."[6]، قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: "... أَيْ: أُذِنَ لَهُ أَنْ يُبَيِّنَ مَا فِي الْكِتَابِ فَيَعُمَّ وَيَخُصَّ وَأَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ فَيُشَرِّعَ مَا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ لَهُ ذِكْرٌ، فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي وُجُوبِ الْحُكْمِ وَلُزُومِ الْعَمَلِ بِهِ كَالظَّاهِرِ الْمَتْلُوِّ مِنَ الْقُرْآنِ"[7] وبناء عليه يجب أن يهيمن القرآن الكريم وتهيمن السنَّة المطهرة على الفكر البشري تأصيلاً له، وتصحيحاً لأخطائه، وتقويماً لمنهجه، فما على المؤمن إذن –وهو يؤمن بهذه العقيدة الغرّاء– إلا أن ينطلق منها، وينضبط بضوابطها، كيف لا؟ وهي تتسم بسمات لا يتسم بها غيرها، من وضوح في الرؤية لكلِّ ما يحتاجه الإنسان، وفهم للأشياء على حقيقتها، ومن طمأنينة وسكينة واقتناع، فضلاً عن أنَّها تُفَسِّر له

---

(1) الممرض بضم أوله وسكون ثانيه وكسر الراء بعدها ضاد معجمة هو الذي له إبل مرضى والمصح بضم الميم وكسر الصاد المهملة بعدها مهملة من له إبل صحاح نهى صاحب الإبل المريضة أن يوردها على الإبل الصحيحة، العسقلاني، فتح الباري، 10/ 242، وصحَّحه الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الجامع، 12/ 1288.

(2) البخاري، صحيح البخاري، 7/ 126، كِتَابُ الطِّبِّ، بَابُ الجُذَامِ، حديث رقم: 5707.

(3) ابن حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد، 36/ 136، حديث رقم: 21806، قال المحققون: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(4) مسلم ابن الحجاج ، صحيح مسلم، كتاب الْقَدَرِ، بَابُ مَعْنَى كُلِّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَحُكْمِ مَوْتِ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَأَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ، 4/ 2047، حديث رقم: 22.

(5) انظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 3/577.

(6) السِّجِسْتاني: سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، أول كتاب السنة، باب في لزوم السُّنَّة 7 / 13، قال المحققان: إسناده صحيح.

(7) العظيم آبادي محمد أشرف بن أمير ... عون المعبود: 12/ 231، 232.

كلَّ شيء من حوله، تفسِّر له طبيعة وجوده، ونشأته، ومصيره، وترسم له معالم صلته بالله تعالى، وترسم له أيضاً معالم صلته بالكون والإنسان والحياة من حوله، وعليها تقوم أحكام الحياة قاطبة، أمَّا أن ينصرف فكر الإنسان إلى الجدل العقيم، والأساليب الكلاميَّة والفلسفات الفارغة من أي مضمون، والخوض في عالم ما وراء الطبيعة، فهذا ما لا سبيل إليه في ظل منهج القرآن الكريم والسنَّة المطهرة اللذين تكفَّلا بكل ما يحتاجه المسلم من علم بعالم الغيب، بأدلَّة وبراهين مقنعة لا يعدلها سواها، لذلك ينبغي التأكيد في هذا المقام على وجوب دراسة مباحث العقيدة

وما يتصل بها من علوم شرعيَّة دراسة تأصيليَّة مردُّها إلى الكتاب الكريم والسنَّة المطهرة، وممَّا ينبغي التأكيد عليه أيضاً أن يلتفت المسلمون إلى دراسة القضايا الفكرية والعقدية التي تطفو على السطح اليوم، ومن ثم دراستها دراسة لا تجافي روح النصوص الشرعية الصريحة الصحيحة، ذلك أنَّ الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالاستفادة من حضارات الأمم التي سبقتهم لأخذ العبرة والعظة، قال الله تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (يوسف:111).

أخيراً لا يستطيع أحد أن ينكر إسهام العقيدة الإسلاميَّة – يوم أن كانت حاضرةً في نفوس أصحابها –إسهاماً لم تُسْبَق إليه في بناء حضارة زاهرة امتدت لأقاصي المعمورة. وأما ما كان من سبب في تخلُّف المسلمين فهو تنكُّبهم عن صراطهم المستقيم، المتمثل في عقيدتهم، ولا شكَّ مطلقاً في أنَّ المسلمين لو عادوا لما أُمِروا به، فإنَّ ملكهم سيبلغ من جديد ما بلغ الليل والنهار.

المطلب الثاني: التوعية بقواعد الخلاف، وفقهه، ومنطق الحوار الفكري وآدابه.

هذا المطلب كما هو واضح من العنوان ينطوي على جزئيَّتين، الأولى منهما: التوعية بقواعد وفقه الخلاف، والثانية: منطق الحوار الفكري وآدابه، وفيما يلي الحديث عن الأولى منهما يعقبه الحديث عن الثانية.

أولاً: التوعية بقواعد الخلاف، وفقهه.

معلوم أن واقع المسلمين اليوم بشكل عام، لا يَسُرُّ صديقاً ولا يَسُرُّ عدُوَّاً، فالصديق يريد لأصدقائه الرفعة والعزّ بكل معانيهما، فلا يستطيع ذلك فلا يُسَر، والعدو يريد لعدوه الذلَّة والمهانةَ بكل معانيهما، فلا يستطيع ذلك هو الآخر فلا يُسَر ولعلَّ ما يطفو على سطح واقع المسلمين، الخلافات –بشتى أنواعها بشكل عام، والفكريَّة منها بشكل خاص–والتي تكاد تعصف بواقعهم، لولا لطف الله ﷻ، لذلك كان لا بد من إسهامة هنا علَّ الله تعالى ينفع بها.

مصادر التشريع التي تجتمع عليها الأمة جمعاء في أنَّ الخلل لا يتطرق إليها البتَّة هي كتاب الله تعالى، وسنَّة نبيه ﷺ وإجماع الصحابة ﷺ، وما سواها فإن الخلل قد يتطرقُّ إليها، فقد قال الله تعالى في شأن كتابه الكريم: "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" (فُصِّلَت:42) وقال رسول الله ﷺ: في شأن السنَّة: "تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض"[(1)]، وعن سنَّته ﷺ، وسنَّةِ الخلفاء الراشدين قال العرباض ﷺ: قال رسول الله ﷺ "... فعليكُم بسنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ المَهديِّينَ الرَّاشدينَ، تَمَسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ،..."[(2)]

وفي قوله: "عليكم بسنتي وسنة الخُلفاءِ.." دليل على أن الواحد من الخلفاء الراشدين إذا قال قولاً، وخالفه فيه غيره من الصحابة، كان المصير إلى قول الخليفة أولى، أَمَّا إجماع الصحابة، فقد قال ابن أمير حاجّ: "أَمَّا إجْمَاعُ الصَّحَابَةِﷺ فَحُجَّةٌ مَعْلُومٌ

(1) الألباني، صحيح الجامع، 1/ 566، حديث رقم: 2937، قال: صحيح.

(2) السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، أول كتاب السنة، باب في لزوم السُّنَّة (7/ 16)، حديث رقم: 4607، قال المحققان: حديث صحيح.

تَصَوُّرُهُ"[1] وقال الشوكاني: "إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ حُجَّةٌ بِلَا خِلَافٍ،... وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: إِذَا أَجْمَعَتِ الصَّحَابَةُ عَلَى شَيْءٍ سَلَّمْنَا، وَإِذَا أَجْمَعَ التَّابِعُونَ زَاحَمْنَاهُمْ"[2].

من هنا فإنَّه يجب على كل مسلم أن يلتزم التزاماً حديديَّاً، ولا يخرج البتَّة عمَّا قرره الكتاب الكريم، وعمَّا قررته السنَّة المطهرة وكذلك عمَّا أجمعت عليه الأمَّة، كذلك إذا وقع تنازع بين بعض قطاعات الأمَّة، فعلى المتنازعين الفرار من قواصم التنازع إلى عواصم الاتفاق والتوافق من خلال الالتزام بكتاب الله الكريم، وسنَّة نبيِّه ﷺ وما أجمع عليه الصحابة كأصول، وأمَّا الخلاف في الفروع، فيرد هو الآخر إلى الأصول ذاتها، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الخلاف في الأمور الاجتهاديَّة هو أمر وارد، وما ينبغي أن ينحو بعض المتنازعين نحو بعضهم الآخر بالتكفير أو التفسيق أو التبديع، وقد يكون الخلاف فيها رحمة بالأمة كتلك الخلافات التي حصلت بين الفقهاء، لكنها لم تكن خلافات بين قلوبهم البتَّة.

ثانياً: منطق الحوار الفكري وآدابه.

أمَّا فيما يتعلق بالحوار، فهو –في ظل الاتفاق على الأصول التي أشرنا لها قبل قليل–لون من ألوان تبادل الآراء حول بعض الموضوعات والأفكار، ومن ثم، فهو جلسة تناصح وتغافر وليس جلسة تصارع وتنافر، روي أن الواعظ ابن السماك قال له صديق: "الميعاد بيني وبينك غداً نتعاتب"، كأنها كانت هفوة من ابن السماك أو زلة تعكر لها قلب صديقه، فقال له ابن السماك، رحمه الله تعالى: "بل بيني وبينك غداً نتغافر"[3].

إن الحوار جلسة بدء علاقة يظللها الحب والتغافر، لا البغض والتنافر، ولسان حال المتحاورين يردد ما قاله البهاء زهير:

منَ اليَومِ تَعارَفنــــــــــــــــــــــــا وَنَطوي ما جرى مِنّـــــــــــــــــــا
وَلا كانَ وَلا صــــــــــــــــــــــــارَ وَلا قُلتُـــــــــــــــم وَلا قُلنـــــــــــا
وَإِن كانَ وَلا بُدَّ مِنَ العَتَـــــــــــــــــبِ فَبِالحُسنـــــــــــــــى[4]

فمع قبول رأي الآخر – لا سيَّما إذا كان من المسلمين– أو رفضه، تبقى طهارة القلب وصفاء السريرة نحوه، مع قبول معذرته والتغافل عن خطئه إن وقع، بل والحرص على أن يخرج الحق على لسانه[5]، فقد رُوي أن الإمام أبا حنيفة ﵁ رأى ولده حمَّاداً يناظر في المسجد فنهاه، فقال له ولده: أما كنت تناظر؟! قال: بلى، ولكن كنا كأن على رؤوسنا الطير من أن يخرج الباطل على لسان الخصم، بل كنا نود أن يخرج الحق على لسانه فنتبعه، فإذا كنتم كذلك فافعلوا[6]!!، وقد استحسن الإمام أحمد رحمه الله ما حكي عن حاتم الأصم عندما قال له قائل: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرك أحد إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟ فقال بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه، فقال أحمد: "ما أعقله من رجل"[7]، نعم، ما أعقله من رجل يحب أن يُظْهِر الله الحق على لسان أخيه، ويحاول رؤية الحق من أي وعاء خرج، ومن أي جهة سطع، هذه هي سمات سلفنا الصالح في حواراتهم.

---

(1) ابن أمير حاج، محمد بن محمد، التقرير والتحبير، 3/ 83.
(2) الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، 1/ 217.
(3) البيهقي، أبو بكر أحمد...الخُسْرَوْجِردي الخراساني، شعب الإيمان، 10/ 561.
(4) الجبلاوي، إبراهيم، ديوان البهاء زهير، ص:261.
(5) أبو زهرة، محمد، أبو حنيفة، ص: 28.
(6) المرجع السابق.
(7) الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 11/ 254.

إن من قواعد الشرع وَالْحكمَة، أنَّ من كان من أهل الحق فأخطأ، فَإِنَّهُ يُحتَمل منهُ مَالا يُحتَمل من غيره ويُعفى عَنهُ مَالا يُعفى عَن غَيره، من أهل الباطل، فقد سُئل رسول الله ﷺعن الماء وما ينوبه من الدواب والسباع؟ فقال:" إذا كان الماء قُلَّتَيْنِ لم يحمل الخَبَثَ"[1]، فطالب الحق إذن، وإن أخطأ نتجاوز عن خطئه ونغفر له تجاوزه، وإن كان ثمة عتاب فبالمودة والإخاء والقول الحسن.[2]، يؤيِّد هذا ما كَانَ بَيْنَ حَسَنِ بنِ حَسَنٍ وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ ﷺ شَيْءٌ، فَمَا تَرَكَ حَسَنٌ شَيْئاً إِلاَّ قَالَهُ، وَعَلِيٌّ سَاكِتٌ، فَذَهَبَ حَسَنٌ، فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ، أَتَاهُ عَلِيٌّ، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَمِّي، إِنْ كُنْتَ صَادِقاً، فَغَفَرَ اللهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِباً، فَغَفَرَ اللهُ لَكَ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ، قَالَ: فَالْتَزَمَهُ حَسَنٌ، وَبَكَى، حَتَّى رَثَى لَهُ[3].

المطلب الثالث: تعزيز ثقافة المراجعة الفكرية علميّاً وحركيّاً[4].

نبتدر هذا المطلب بالعبارة المشهورة على الألسنة، وهي: "الحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع" وهي مستفادة من قول الله تعالى: "... أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ..."، (يونس: من الآية: 35)، بمعنى أنَّ الذي يرشد إلى الهداية، ويهدي إليها هو الجدير بالاتِّباع دون سواه من العاجزين عنها[5].

هذه المقدِّمة اليسيرة، هي مقدِّمة عامَّة، تحضُّ الإنسان على اتباع الحق حيثما وجده وفي كافة مناحي حياته، ومنحى الأفكار، هو من جملة هذه المناحي، فإذا ما توصَّل الإنسان إلى فكرة جديدة وكانت أصح من فكرة سابقة عنده، فالأجدر به أن يتبعها، نقول هذا في الصحيح والأصح، بيد أنَّ الأولى منه إذا كانت عند إنسان فكرة خاطئة أو مغلوطة فعليه أن يبدِّلها بفكرة صحيحة، لا سيَّما إذا تعلَّق الأمر بأمر من أمور الدين، بحيث ينأى الإنسان بنفسه أن يكون من أولئك الذين أخبرنا عنهم القرآن الكريم في قوله عزَّ من قائل: "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ، وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ" (الزخرف:22-23).

هذا الحديث وما يدور في فلكه، هو ما قصدناه في هذا المطلب، وهو المراجعة الفكريَّة، ولما كانت الأفكارُ من الأهمية بمكان، كان لا بدَّ من التحرُّز في مراجعتها، بمعنى ما ينبغي أن تكون الأفكار عرضة للتغيير وللتبديل، إذا لزم الأمر أو لم يلزم، كما الثوب الذي يلبسه صاحبه متى شاء، ويخلعه متى شاء، لذا كان لا بدَّ من الدقة والتروِّي في مراجعة الأفكار بمعنى أن تكون مراجعتها وفق ضوابطَ مستقاةٍ من الشرع، ويجدر بنا في هذا المقام بالتذكير بثناء النبيِّ ﷺ على أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ، عندما قال له: " إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ "[6].

والحلم هنا هو العقل، وأما الأناة فهي الهدوءُ والتَّرَوِّي وَتَرْكُ الْعَجَلَةِ[7]، أما المراجعة الفكريَّة التي لا خُطامٌ لها ولا زمام، فهي المراجعة المنفلتة أو غير المنضبطة، وهي التي تهدم الحق في نفس صاحبها، حتى وإن لم يبن له ذلك.

هذا النوع من المراجعات هو الذي يصدق عليه قولُ ابن القيم:-

---

(1) الألباني، محمد ناصر الدين صحيح أبي داود، كتاب الطهارة، باب ما ينجس الماء،1/ 104 حديث رقم: 56.

(2) انظر: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، 1/ 176.

(3) الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، 4/ 397.

(4) للاستزادة يراجع مقال: المراجعات الفكرية بين الانضباط والانفلات/ مروان محمد أبو بكر، موقع الألوكة،/http://www.alukah.net/sharia والتوازن الفكري/ أ.د. الشريف حاتم بن عارف العوني، مركز نماء للبحوث والدراسات.
http://www.nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?id=314

(5) انظر: حوّى، سعيد، الأساس في التفسير، 5/ 2456.

(6) مسلم ابن الحجاج: صحيح مسلم، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَرَائِعِ الدِّينِ، وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ،1/ 48.

(7) انظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، 1/ 189.

"وتهدم ما تبنى بكفك جاهداً ... فأنت مدى الأيام تبنى وتهدم"[1]

ما تقدَّم من حديث يعني أننا بين نوعين من أنواع المراجعة الفكريَّة، الأول هو المراجعة الفكريَّة المحمودة المنضبطة بالضوابط الشرعيَّة، والآخر هو المراجعة الفكريَّة المذمومة وهي التي لا خطامٌ لها ولا زمام، أو المراجعة المنفلتة، أو التقلّب الفكريّ، وهو كناية عن سرعة الرجوع عن الأفكار إلى غيرها، ثمَّ إلى غيرها وهكذا دونما ضوابط.

هذا النوع من أنواع المراجعة –المراجعة المنفلتة، أو التقلُّب الفكري، أيَّاً كانت التسمية–يُفقد صاحبه كل أنواع الاستقرار النفسي والأُسَري والوظيفي، كما يفقده ثقته بنفسه الأمر الذي سينتهي به إلى أن يكون عالة على غيره، هذا إن لم يكن معول هدم لمجتمعه.

إذا أردفنا هذا الحديث، بالحديث عن أبرز الأسباب التي تحضُّ الإنسان على المراجعة المنضبطة لأفكاره وتصوراته، فإنَّها تتمثل فيما يلي:

1–كون الإنسان خطَّاء، فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّﷺ قَالَ: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"[2]. والحديث دال على أنه لا يخلو من الخطيئة إنسان، لما جبل عليه من الضعف، وأنَّه إذا عصى الله تعالى وتاب، تاب الله تعالى عليه[3]، ومن ثَمَّ، فلا بد أن يقوم بمراجعة أفكاره التي قد تكون من قبيل المعصيةً أو الخطأ، فيتوب منها، سواء كان في تحديد الهدف أو الوسيلة، هذا الكلام ينطبق من جملة ما ينطبق على إنسان يؤمن بمبدأ، أو بمنهج جماعة من الجماعات، ويعمل للإسلام من خلالها؛ معتقدًا أنَّها على الحقِّ، فقد يكون مصيباً، وقد يكون مجانباً للصواب، لسبب من الأسباب، كأن يكون اتباعه لجماعته نابعاً عن قلَّةِ علمٍ وقلَّةِ فَهْم للشرع، أو لحقيقة المنهج الذي تسير عليه تلك الجماعة، أو ربما يكون المنهجُ صحيحًا ولكن أولي الأمر فيها يُخالفون في تطْبيقه؛ فهنا على هذا الإنسان أن يُراجع أفكارَه، وينظرَ في أمر جماعته وفي المنهج الذي تسير عليه، هل يُرضي اللهَ تعالى أن يسيرَ فيه، أم لا؟ وما ينبغي أن يمنعه عن مراجعة الحق مانعٌ، من خجل، أو خوف من فراق أحبتِه؛ فإنَّ الحق أحق أن يُتَّبَع، وإنَّ القضية الأساسية هي: رضا الله تعالى أو سخطه.

2– رسوخ القدم، وطول الخبرة، واختلاف النظَرة مع التقدُّم في العمر، عوامل مهمة في إحداث المراجعة الفكرية ؛ فإنَّ نظرة الشابِّ قليل الخبرة، المتسرِّع العَجُول غير نظرة الكهْل المجَرِّب، وكلاهما غير الشيخ الكبير، في الخبرة المتراكمة عبر سنيِّي العمر.

3– ظهور الدليل المخالف لدى صاحبه، والذي يثبت الذي يُثبت خطأ رأيه الأول، فقد خرج نفر كبير على عليٍّ والمسلمين، بعد موقعة صفِّين سُمُّوا بالخوارج، وكفَّروه وكفَّروا سائر المسلمين، قال الإمام ابن كثير رحمة الله تعالى عليه: "... ولما كان قد قارب دخول الكوفة اعتزل مَنْ جَيْشِهِ قَرِيبٌ مِن – اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا– وَهُمُ الْخَوَارِجُ، وَأَبَوْا أَنْ يُسَاكِنُوهُ فِي بَلَدِهِ، وَنَزَلُوا بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ حَرُورَاءُ وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ أَشْيَاءَ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ ارْتَكَبَهَا، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ فَنَاظَرَهُمْ فَرَجَعَ أَكْثَرُهُمْ"[4]، فهؤلاء الخوارج بالرغم مما كانوا عليه من ضلال في الرأي وفساد؛ فإنَّ منهم من رجع عن ضلاله، بعد ظهور الدليل الصحيح.

---

(1) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص: 53.

(2) الترمذي، سنن الترمذي، أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، باب 49، 4/ 240، حديث رقم:2499، قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(3) انظر: الصنعاني، محمد بن إسماعيل، سبل السلام، 2/ 653،

(4) البداية والنهاية، ص: 7/ 309

المطلب الرابع: الانفتاح الفكري على الحضارات وفق ضوابط العقيدة الإسلاميَّة[1].

بصرف النظر عن كون الانفتاح الفكري أحد المصطلحات الوافدة، وبصرف النظر كذلك عن نوايا المنادين به، إسلاميِّين كانوا أو غير إسلاميِّين، فإنَّ طرحه هنا سيكون فقط من قبيل الانطلاق نحو الآخر، دعوة له أولاً، عملاً بقول الله تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"، (آل عمران: 104) وعملاً كذلك بقول النبي: ﷺ"الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"[2]، وترك الانكفاء على الذات، والانغلاق عليها، والانفتاح على حضارته ثانياً بغرض الاستفادة مما لديه من تقدم وتطور، فإنَّه قد قيل: الحكمة ضالة المؤمن[3]، بمعنى أنَّهُ لا يزال يسأل عنها ويطلبها، وأخيراً التعايش معه بروح سمحة كل ذلك وفق ضوابط العقيدة الإسلاميَّة، والتي سنوجزها فيما يلي:

1- أن يكون الانفتاح الفكري مسبوقاً بالإسلام علماً وعملاً.

أمَّا ما قبل فإنَّ فيه منزلقات خطيرة، ربما يكون أولها الشك في الدين، وانتهاءً بالخروج منه والعياذ بالله تعالى، فقد روى جَابِرٌ ﷺ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ: " أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي"[4]، هذا الدرس من النبيِّ ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ أبلغ درس بمنع ما يسمَّى اليوم بالانفتاح الفكري قبل رسوخ القدم في الإسلام[5] لكن من بعد ما رسخت نجده ﷺ يأذن به وبضوابط أيضاً، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"[6]، وضوابط الإذن تتمثل في أنَّ ما يُنْقَلُ عنهم إن صَحَّ ووافق شرعَنا نصدِّقه ونعمل به، وإن صَحَّ ولم يُوَافِقْه شرعُنا نصدِّقه ولا نعمل به، ونحمله على النسخ أو التحريف وإن لم يَصِحَّ، أو لم يَنْكَشِفْ أصلُه، فلا نصدِّقه ولا نكذِّبه[7].

2- أن يكون الانفتاح الفكري مقتصراً على العلوم الدنيويَّة، وبقصد التجديد والتطوير والإبداع والابتكار.

هذا الضابط ينطوي على أمرين مهمَّين:

الأول: لا يجوز البتَّة أن يتطرَّق الانفتاح الفكري إلى العلوم الدينيَّة، ذلك أنَّ مصدرها الوحي الإلهي الذي لا ينطق عن الهوى، قال الله تعالى: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى" (النجم:3-4) ، والمعنى: أنَّ النبيَّ ﷺ لا يتكلَّم عن هواه، إنما يبلِّغ ما أمره ربُّه ﷻ أن يبلِّغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة أو نقصان[8]، وأكثر من هذا فإنَّ محمداً ﷺ لو تقوَّل على

(1) للاستزادة، ينظر: السلمي عبد الرحيم بن صمايل، الانفتاح الفكري حقيقته وضوابطه، مجلة الأصول والنوازل، السنة الأولى، العدد الأول، محرم 1430هـ/ يناير 2009م.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد بالتعليقات، ص: 200، قال الشيخ الألباني: صحيح، والهروي، مرقاة المفاتيح، 3/ 3318.

(3) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 297/9.

(4) الألباني، محمد ناصر الدين، إرواء الغليل، 6/ 34، حديث رقم: 1589، قال رحمه الله تعالى: حسن، وقوّاه لأن له شواهد كثيرة.

(5) انظر: القرضاوي، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، ص: 72.

(6) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، 4/ 170، حديث رقم: 3461.

(7) انظر: الديوبندي، محمد أنور شاه، فيض الباري على صحيح البخاري، 4/ 411.

(8) انظر: بن عطية، أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 196/5، وابن كثير، إسماعيل بن عمر تفسير القرآن العظيم، 7/ 411.

الله ﷻ فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى لعاجله بالعقوبة ولهذا قال الله تعالى: "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ" (الحاقَّة:44-47)، أي: لو افترى علينا، لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا منه بيمينه ثم لقطعنا منه الوتين[1]، "وَهُوَ نِيَاط قلبه"[2]، كما قال ابن عباس ﷺ.

الثاني: أن يكون الغرض من الانفتاح الفكري، التجديد والتطوير والإبداع والابتكار، دونما انبهار بحضارة غير المسلمين؛ لأن ذلك إن دلَّ فإنَّما يدلُّ على عدم العلم بالإسلام والاعتزاز به والثقة المطلقة بصدقه ودلالته على الفلاح والهداية في الدنيا والآخرة، ومهما يكن من أمر فإنَّ حضارات الآخرين وإن كان فيها محاسن وإيجابيَّات ينبغي أن يشمر لها المشمِّرون إلا أنَّه وفي الوقت نفسه فيها من المخازي والسلبيَّات ما يوجب على العاقل أن يفرَّ منها فراره من المجذوم، ففيم الانبهار إذاً؟؟!! هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنَّه يدلُّ على ضعف شخصيّة المنبهر، وهزيمة نفسه وقصور فكره، وهذا بدوره يعيدنا إلى أنَّ هذا المنبهر لم يحقق في نفسه الضابط الأول من ضوابط الانفتاح، الأمر الذي لا يجوز له بموجبه الانفتاح أصلاً، ومن كانت هذه حاله فلن يتجاوز التقليد المجرد أما التجديد والتطوير، والإبداع والابتكار، فلا يمكن أن يحصلها المنبهر حتى يفوق من سكر انبهاره بغيره، ويقوم بنقده نقداً واعياً، ليأخذ ما يفيده ويرد ما عداه.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: "ومن الانفتاح المحذور: الانفتاح المبهور بثقافة الآخر حين ينظر إليه مضخمًا من شأنه معظمًا من فكره، شاعرًا بالدونية تجاهه لسبب أو لآخر فكل ما قاله هذا الآخر، فهو صدق، وكل ما رآه فهو صواب، وكل ما فعله فهو جميل أي أنَّه أضفى عليه نوعاً من التأليه، وإن لم يكن تأليهاً بالقول"[3].

الخاتمة

أحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا أحصي ثناءً عليه، هو سبحانه كما أثنى على نفسه، بنعمته سبحانه تتم الصالحات وباستغفاره والتوبة إليه تغفر الزلَّات، وتقال العثرات، فله الحمد سبحانه في الأولى والآخرة، أن وفقني لهذا الجهد، وإن كان جُهداً مُقِلّاً لقصور كاتبه، فما كان فيه من خيرٍ أو صوابٍ- كما قال أبو بكر ﷺ[4] فهو من الله ﷻ وحده، وإنِّي لأرجوه ﷻ أن يتقبّله وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به والمسلمين المخلصين في الدنيا والآخرة إنه سبحانه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ، وأمَّا ما كان فيه من خطأ أو تقصير فمن الشيطان ومن نفسي، وأسأله سبحانه المغفرة وحسن الختام، وبعد.. فقد اشتملت خاتمة هذا البحث على طائفةٍ مهمَّةٍ من النتائج والتوصيات أجملها فيما يلي:

أولاً: النتائج:

1-العلاقة بين أزمة الفهم من جهة، والتطرف والغلو العقدي من جهة أخرى، هي علاقة طرديَّة، إذ كلَّما ابتعد إنسان عن الفهم السليم، بدافع من دوافع البعد، كلَّما أصيب بالجُنُوح، ومجاوزة حدِّ الاعتدال.

2-من كان سبباً في أزمة الفهم لغيره لا بد وأن يكون مأزوم الفهم قبله.

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (8/ 233)، والقاسمي، محمد جمال الدين محاسن التأويل، 9 / 314.

(2) ابن عباس، عبد الله ﷺ، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص: 484.

(3) انظر: القرضاوي، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، ص: 76

(4) انظر: ابن أبي شيبة، أبو بكر، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، 6/ 298.

3-الأوامر الإلهيَّة، يجب أن تقابل بالطَّاعة المطلقة، وإلا فإنَّ أزمة فهم حادَّة ستترتب على العصيان.

4-التنطُّع الذي هو التشدد في غير موضعه يورد صاحبه موارد الهلاك بلا شك، إذ فيه هدرٌ للزمان بما لا طائل من ورائه، وبذلٌ مُضْنٍ للجهد بلا فائدة.

5-مصائب الفرق التي انحرفت في التاريخ الإسلامي، نتجت عن تنطُّعها وتشددها.

6-التكفير المطلق يجب أن يكون مضبوطاً بضوابط الشرع، وعليه فلا يجوز التعامل معه بدوافع الجهل أو الهوى، فمن فعل، فإنَّما هو مأزوم الفهم.

7-الولاء المطلق للشخصية الفكرية وللكيان الفكري المذهبي، يعدُّ مخالفةً صريحةً وواضحةً لعقيدة الولاء والبراء، فضلاً عن كونه الغُلُوِّ والانحراف.

8-لا يُجيْزُ الإسلامُ الاطِّلاعَ على أفكار ومذاهب الآخرين إلَّا بعد العلم بالإسلام والاعتزاز به، والثقة فيه.

9-الاستِكْبار والتعالم، اسمان لمسمَّىً واحد من جهة ذمٍّ وقبح كلٍّ منهما، وأنَّهما يؤدِّيان إلى الجلافة، والغلظة، والخشونة والرّعونة.

ثانياً: التوصيات:

يوصي الباحث بما يلي:

1-على من أراد أن يتحقق الغاية من خلق الله تعالى له على هذه الأرض، والمتمثلة في القيام بمهمَّات الخلافة فيها، أن يحرص الحرص كلَّه على أن يكون من أصحاب الفهم السليم، وإلا فلن يكون حلقة في سلسلة الخلافة الممتدَّة من لدن آدم ﷺ وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

2-اعداد الطاقات وتربيتها تربيةً سليمةً، وتعليمها علماً نافعاً، حتى تتأثر بما تربَّت عليه وتعلَّمته، كي تؤثر هي بدورها فيمن بعدها، بحيث يحرِّز ذلك الجميع عن أيَّة أزمة فهم محتملة.

3-عدم التصدير قبل التأهيل، فهو آفة في العلم والعمل، قال القاضي أبو الطيب سهل بن محمد الصُّعْلُوكِي رحمه الله: "مَنْ تَصَدَّرَ قبلَ أوانِهِ، فقد تصدّى لِهَوَانِهِ"[(1)].

4-الدقةُ والتروِّي في مراجعة الأفكار، حتى لا تكون عرضة للتغيير وللتبديل، وإن كان ولا بد، فلتكن المراجعة وفق ضوابطَ مستقاةٍ من الشرع الحنيف.

5-الحذر من التعالم، فهو داء عضال يفتك بصاحبه، من جهة أنَّه يؤدي إلى الانتكاس لأن المتعالمَ همُّه الناس وسرعان ما تظهر حقيقته ويفقد شهرته الكاذبة، فينكص على عقبيه.

6-تحصيل العلم عن العلماء الثقات، أمَّا ما سوى ذلك، كتحصيله عن أشباه العلماء أو من بطون الكتب، فإنَّه يؤدِّي إلى أخطاء كثيرة، لضعف المعرفة بالأدلَّة الشرعيَّة والأحوال المرعيَّة، التي راعاها أهل العلم وعملوا بمقتضاها.

تَمَّ البحثُ ولله تعالى الحمدُ والمنَّة

(1) شذرات الذهب في أخبار من ذهب،5/ 27.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن أبي، شيبة أبو بكر، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (1409ه)، *الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار (مصنف ابن أبي شيبة)* / تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة الرشد.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (1412 هـ–1992م)، *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

مسلم، ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري *صحيح مسلم*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت دار إحياء التراث العربي.

ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد (1406هـ–1986م)، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، تحقيق: محمود الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دمشق – بيروت، دار ابن كثير.

ابن أمير حاج، محمد بن محمد بن محمد، ويقال له ابن الموقت الحنفي (1403هـ–1983م)، *التقرير والتحبير*، الطبعة الثانية دار الكتب العلمية،

ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، (1416هـ/1995م) مجموع *الفتاوى*، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية المدينة النبوية.

ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، *مجموعة الرسائل والمسائل*، تعليق: السيد محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي.

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (1421هـ –2001م)، *مسند الإمام أحمد*، تحقيق: شعيب الأرنؤوط –عادل مرشد، وآخرين، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة.

ابن صالح عبد الله، عبد الرحمن (1407ه)، *المفردات الموضوعية في العلوم التربوية* / الطبعة الأولى، جدة، دار المنارة.

ابن عباس ، عبد الله، *تنوير المقباس من تفسير ابن عباس*، ينسب له.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، (1416هـ/ 1996م) *فتوح مصر وأخبارها*، تحقيق: محمد الحجيري، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفكر.

ابن عبد الوهاب، سليمان بن عبد الله بن محمد، (1423ه–2002م)، *أوثق عرى الإيمان*، الطبعة الأولى، الرياض، دار القاسم.

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي، (1422ه)، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن فارس، أحمد بن زكريا القزويني، أبو الحسين، (1399هـ –1979م)، معجم *مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر.

ابن قاسم العيد، سليمان، *سبل وقاية الأولاد من الانحراف من منظور إسلامي*، جامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الثقافة الإسلامية.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (1403هـ/1983م)، *روضة المحبين ونزهة المشتاقين*، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر ... (1408هـ)، *الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة*، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، دار العاصمة–الرياض.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر ...، *عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين*، (1409ه-1989م)، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، المملكة العربية السعودية-المدينة المنورة، مكتبة دار التراث.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، (1411هـ-1991م)، *إعلام الموقعين عن رب العالمين/* تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، *طريق الهجرتين وباب السعادتين*، (1394هـ)، الطبعة الثانية، مصر، دار السلفية، القاهرة.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، *مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة*، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (1408هـ-1988م)، *البداية والنهاية*، تحقيق: على شيري، الطبعة الأولى دار إحياء التراث العربي.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (1419هـ)، *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، بيروت دار الكتب العلمية.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين... (1414 هـ) *لسان العرب*، الطبعة: الثالثة، بيروت، دار صادر.

ابن هشام، عبد الملك (1375هـ-1955م.)، *السيرة النبوية*، تحقيق: (مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي)، الطبعة الثانية، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

أبو زهرة، محمد، *أبو حنيفة، حياته وعصره آراؤه وفقهه*، دار الفكر العربي

الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (1987م)، *جمهرة اللغة*، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم للملايين.

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب، (1412هـ) *المفردات في غريب القرآن*، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة: الأولى، دمشق-بيروت، دار القلم، الدار الشامية.

الأعلام، علماء نجد، *الدرر السنية في الأجوبة النجدية*، (1417هـ/1996م)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة السادسة

آل بورنو، محمد صدقي بن أحمد بن محمد أبو الحارث الغزي، (1416 هـ -1996م) *الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية*، الطبعة الرابعة، بيروت – لبنان، مؤسسة الرسالة.

الألباني، محمد ناصر الدين (1405 هـ -1985م.)، *إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل* إشراف: زهير الشاويش، الطبعة الثانية، بيروت المكتب الإسلامي.

الألباني، محمد ناصر الدين (1423 هـ -2002م)، صحيح *أبي داود – الأم*، الطبعة الأولى، الكويت، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع.

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي.

الآمدي أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي *الإحكام في أصول الأحكام* تحقيق عبد الرزاق عفيفي، بيروت-دمشق، المكتب الإسلامي.

البخاري محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله (1400هـ –1980م)، جزء *القراءة خلف الإمام*، تحقيق وتعليق: الأستاذ فضل الرحمن الثوري الطبعة الأولى، المكتبة السلفية.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله (1422هـ)، *صحيح البخاري*. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الطبعة الأولى، دار طوق النجاة.

البخاري، محمد بن إسماعيل، (1409ه– 1989م)، *الأدب المفرد بالتعليقات* تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مستفيدًا من تخريجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث، محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، 1419 هـ–1998 م الرياض، مكتبة المعارف.

البركتي، محمد عميم الإحسان المجددي(1424هـ–2003م)، *التعريفات الفقهية*، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية.

البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد (1408هـ –1988م)، *الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة*، تحقيق: محمد رضوان الداية، الطبعة الأولى، دمشق – سورية، دار الفكر

البغدادي، عبد المؤمن (1374هـ–1955م)، *مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع*، الطبعة الأولى، بيروت دار، المعرفة.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، (1420ه)، *معالم التنزيل في تفسير القرآن*، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر، *شعب الإيمان*، (1423هـ–2003م)، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الطبعة الأولى، الرياض–مكتبة الرشد، بومباي – الهند، الدار السلفية.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (1998م)، *سنن الترمذي*، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت دار الغرب الإسلامي.

التهانوي محمد بن علي ابن القاضي (1996م)، *موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم*، تحقيق: د. علي دحروج، الطبعة الأولى بيروت، مكتبة لبنان ناشرون.

الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (1403هـ –1983م)، التعريفات، الطبعة الأولى، لبنان، دار الكتب العلمية بيروت.

الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد... ابن الأثير، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، (1399هـ–1979م)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي–محمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية.

الجصاص أحمد بن علي أبو بكر الرازي (1405هـ)، *أحكام القرآن*، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (1421هـ/ 2001م)، *تلبيس إبليس*، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار الفكر.

الجوهري الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*.

حجِّي أحمد إسماعيل، (1998م)، *الإدارة التعليميّة والإدارة المدرسيّة*، القاهرة، دار الفكر العربي.

الحمداني، أبو فراس، (1414هـ – 1994م) *ديوان*، شرح الدكتور خليل الدُوَيْهي، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب العربي.

حوّى، سعيد (1424هـ)، *الأساس في التفسير*، الطبعة السادسة، القاهرة، دار السلام.

الخطيب، أحمد وآخرون(1985م) دليل البحث والتقويم التربوي.

الخلف، سعود بن عبد العزيز(1420–1421ه)، *أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة*.

الديوبندي (أمالي) محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم (1426هــ–2005م) *فيض الباري على صحيح البخاري*، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية لبنان، بيروت.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (1405هــ/1985م)، *سير أعلام النبلاء*، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة.

الرازي. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (1420هــ / 1999م)، *مختار الصحاح*، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الطبعة الخامسة، بيروت – صيدا، المكتبة العصرية –الدار النموذجية.

الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق (1421هــ–2000م)، *وحي القلم*، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية.

الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، *تاج العروس من جواهر القاموس*، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

الزحيلي، محمد، *الإسلام والشباب*، دار القلم –دمشق.

الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم، *مناهل العرفان في علوم القرآن*، الطبعة الثالثة مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه،

الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله. *البرهان في علوم القرآن*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة دار التراث.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، *الفائق في غريب الحديث والأثر*، تحقيق: علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، لبنان–دار المعرفة.

زهير، البهاء، *ديوان البهاء زهير*، شرح وتحقيق: محمد طاهر الجبلاوي–محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – الطبعة الثانية.

السِّجِسْتاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، (1430هــ–2009م)، *سنن أبي داود*، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط –محَمَّد كامِل قره بللي الطبعة الأولى، دار الرسالة العالمية.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، (1429هــ –2008م)، *الاعْتِصَام*/ تحقيق ودراسة، د. هشام بن إسماعيل الصيني، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي.

الشنقيطي، محمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني، (1415هــ–1995م)، *كوثَر المَعَاني الدراري في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحُ البُخَاري*، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة.

الشوكاني، محمد بن علي، (1419هــ –1999م)، *إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول* تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية الطبعة الأولى، دمشق –كفر بطنا، دار الكتاب العربي.

الشيباني، عمر التومي، *دور المربي ورجل الإعلام، والمرشد الديني، في الوقاية من الجريمة والانحراف*، مجموعة بحوث دور المواطن في الوقاية من الجريمة والانحراف، (المركز العربي للبحوث والدراسات الأمنية).

الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني، *سبل السلام*، دار الحديث، بدون طبعة ولا تاريخ.

الطبري، محمد بن جرير ... أبو جعفر (1420هــ –2000م)، *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة.

الطرفاوي، أبو حسام الدين، *الغلو في التكفير، المظاهر.. الأسباب.. العلاج*.

الطوسي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، (1405هـ–1985م)، *قواعد العقائد*، تحقيق: موسى محمد علي، الطبعة الثانية، لبنان عالم الكتب.

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (1379ه)، *فتح الباري شرح صحيح البخاري* رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي أخرجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة.

العظيم آبادي، محمد أشرف بن أمير ... (1415هـ) عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: *تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته*، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتب العلمية.

العمري، محمد بن عبد الله الخطيب، (1985م)، *مشكاة المصابيح*، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي– بيروت.

العيني–بدر الدين، أبو محمد محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري،...، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

القاسمي محمد جمال الدين (1418هـ)، *محاسن التأويل*، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

القرضاوي يوسف، (1421ه–2000م)، *ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق*، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الشروق.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (1384هـ –1964م) الجامع *لأحكام القرآن*، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش. الطبعة الثانية، القاهرة دار الكتب المصرية.

قطب، سيد إبراهيم حسين الشاربي (1412هـ)، *في ظلال القرآن*، الطبعة السابعة عشر، بيروت–القاهرة، دار الشروق.

قلعة جي محمد رواس – قنيبي، حامد صادق، (1408هـ –1988م)، معجم *لغة الفقهاء*، الطبعة الثانية، دار النفائس.

القلقشندي، أحمد بن علي، (1987م) *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، تحقيق: د. يوسف علي طويل، الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر.

الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، *الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية*، تحقيق: عدنان درويش –محمد المصري، بيروت مؤسسة الرسالة.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (1421هـ) *الأحكام السلطانية*، الطبعة الثانية، بيروت دار الكتب العلمية.

مصطفى إبراهيم، و(أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، *المعجم الوسيط*، دار الدعوة.

المناوي عبد الرؤوف، (1410هـ–1990م.)، *التوقيف على مهمات التعاريف*، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (1392ه)، *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج*، الطبعة الثانية، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

الهروي، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا القاري (1422هـ –2002م)، *مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح* الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار الفكر.

اليمني، نشوان بن سعيد الحميرى (1420هـ–1999م)، *شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم*، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري –مطهر بن علي الإرياني – د. يوسف محمد عبد الله، الطبعة الأولى، (بيروت –لبنان)، دار الفكر المعاصر، (دمشق –سورية)، دار الفكر.

مجلّات:

السلمي عبد الرحيم بن صمايل، ***مجلة الأصول والنوازل***، السنة الأولى، العدد الأول، محرم 1430هـ/ يناير 2009م.

مواقع الشبكة العنكبوتيّة:

الجزيرة صحيفة يومية تصدرها مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، الخميس 9 ،شوال 1421 ، العدد: 10325

مدونة الدكتور/ خضر عباس، *ما بين الخلاف والاختلاف تضيع المواقف*، https://drabbass.wordpress.com م 30/10/2013.

http://rachelcenter.ps/news.php?action=view&id=5535 مركز راشيل كوري لحقوق الإنسان، بحث قانوني: الازمات، مفهومها، انواعها، طريقة ادارتها.

الموقع الإلكتروني الرسمي لجريدة النور، العدد 387، بتاريخ: 2009/5/6 www.anaour.com. http://www.al-jazirah.com/2001/20010104/ar1.htm

موقع الألوكة، http://www.alukah.net/sharia/0/1413 .

مركز نماء للبحوث والدراسات والتوازن الفكري/ أ. د. الشريف حاتم بن عارف العوني، http://www.nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?id=314.